مدينة العذارى

إسلام الحادي

مدينة العذارى

إسلام الحادي
الطبعة الأولى (نوفمبر ٢٠١٦)

تصميم الغلاف: عبد الله رجب

المراجعة اللغوية: هبة النجار ـ التنسيق الداخلي: إسلام علي

مدير النشر: هند عبد الله (نور مانجا)

إشراف عام: رباب الشهاوي

رقم الإيداع: **2016/22293**

الترقيم الدولي: **978-977-6534-23-0**



Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

مدينة العذارى

(مجموعة قصصية)

إسلام الحادي



♥ إهداء ♥

إلى أبي وأمي

(هذان في الدنيا هما الرحماء)

أخي وأختي

(بهما أبصر طريقي)

ابني وابنتي

(قطع متناثرة مني)

زوجتي

(إذا ما ضعت في درب ففي عينيها عنواني)

"القلبُ غِمدُ الذكرياتِ.. مَنِ الذي أفضى لسيفٍ في الضلوعِ.. وسَلّهْ؟"

(أحمد بخيت)

"وما خُلِقت الروايات إلا لحاجتنا إلى مقبرة تنام فيها أحلامنا الموؤودة."

(أحلام مستغانمي)

"أهدي كتابي للنسيان آملًا أن يرفضه."

(غادة السمان)

إهداء خاص

إلى قديس القصة وراهب الإبداع .....

إلى الأستاذ/ محمد عبد المطلب

رئيس اتحاد كتاب فرع جنوب الصعيد

العصفور واليمامة

(المشهد الأخير)

حين جلست اليمامة بجانب النافذة وشخصت ببصرها بعيدًا، أطلقت الآهات تباعًا. ملت الرجوع بذاكرتها إلى الوراء، جالت ببصرها في عربة القطار، رأته يحمل حقيبته الجلدية، تعثر بها كثيراَ وسط الزحام، يبحث عن رقم المقعد باهتمام بالغ. شعرت بأن الأرض تميد بها، تلاحقت دقات قلبها، تمنت أن تكون مخطئة، وحين تأكد حدسها ظهر عليها الارتباك جلياَ، ثم قررت أن تغير مكانها.

بقلب بكر وبدموع زهرة داعب الندى عينيها، استوقفتها نظراته المطولة، جلس بجانبها وشخص ببصره في الناحية المقابلة. أمواج الماضي تهدر في القطار. تداخلت أصوات الباعة الجائلين مع أصوات الصياح خارج القطار، والأذرع التي تلوّح مودعة وعبارات الوداع ودعاء السفر. وما إن استقرت الأحوال وهدأت الأصوات، ساد الصمت بينهما، فلم يستطع أحدهما أن ينبس ببنت شفة، لا شيء يقال فقد مضى زمن العتاب.

لله كم من الكلمات ماتت على الأفواه! وكم من الكلمات ماتت قبل أن تولد! وكم من الكلمات أطبقت عليها الضلوع حتى غرقت في بحر الصمت وعذابات الإخفاء!

طويت السنين في صحراء قاحلة، أعوام من الأرق من الأحلام المتشابكة، من الاختباء خلف جدار الوعد، من المداعبة للخاتم الذهبي والفضي، من التحام الأفكار، من الرسائل المتبادلة عبر القمر وعبر أثير الأرواح، من الكتب التي تسقط منهما عنوة حين يداهم النوم جفونهما.

*****

(ما قالته اليمامة للعصفور)

في كل صباح ترتسم على جبهتها آيات السخط، ترسل نظراتها النارية، ثم تكور الكلمات وتقذفها، لتستقر في أعماقي، أبتسم ثم أمضي، أختبئ خلف جدار العهد، ثم أعاود قلب صفحات كتابي، أعيش مع أبطاله، أحزن لحزنهم، وأسعد لسعادتهم؛ وحين يحيطني الإجهاد أتركه وأشخص ببصري قليلًا أعد الأيام والساعات أتمنى عودتك.

مازلت أذكر عندما اصطدمت بالجدار ونحن صغار، وسال الدم من أنفك الدقيق، حاولت أن أمنعه بشتى الطرق؛ يومها عدت إلى البيت وملابسي مخضبة بدمائك. سأنتظرك حتى آخر العمر مهما حلقوا به وبمركزه المتميز ووسامته وأناقته غير المعهودة، ومهما وضعوا من قدرك ومكانتك. غضب أبي وصرخ في وجهي قائلًا: "أنتِ تنتظرين الوهم".. ابتسمتُ في ثقة، وقلت: "بل كل الحقيقة".. ثم أعاود أجتر شريط الذكريات يوم أن ضايقني أحد أقرانك، وعندما أخبرتك أوسعته ضربًا، حتى جاء والده صباح اليوم التالي في المدرسة يريد تحرير محضر في قسم الشرطة، ولولا تدخل المدير كانت الكارثة ستحل، وتذهب إلى القسم. مع أن المدير أوسعك ضربًا، وكال لك سيلًا جارفًا من السباب والشتائم، كنت أقف مع زميلاتي أشعر بالزهو وأنت تعاقب لأجلي. عقدت ضفائري، وأقسمت أنها لن تُحَل إلا بيديك، فلا تقلق.

*****

(ما قاله العصفور لليمامة)

ما الذي حدث بيننا؟ وما الذي لم يحدث؟ هل اكتفيت بمرحلة الحب الأولى؟ أشعر وكأنني أغط في سبات عميق، أترنح أحيانًا ولست بثمل، أحببت كل ما يحيط بك، حقيبتك الجلدية، هرتك الصغيرة التي تتلوى عندما تراك وتظل تتمسح بأقدامك.. يتردد صوتها في أعماقي. ما زلت أذكر وجهك حين كنتِ

تودعينها.. كان به مسحة من حزن ممزوج برقة ووداعة لم أعهد مثليهما من قبل، تبتسمين لها وتهبطين من عرشك العالي إليها تطعمينها فتات الخبز ومعه لمسة من أناملك يهتز لها ذيلها وتموء.

أحببتُ الجدران والباعة الذين يحيطون بالبيت.. أحببت الدرج ووقع أقدامك عليه.. أحببت النوافذ حينما تضغطين براحة يديك عليها.. أحببت الصباح لأني سألقاك.. وأحببت الليل لأنك زائرتي الوحيدة في أحلامي. صبغت روحي بلون روحك، وقلبي أصبح مخضباً بحروف اسمك، لم يعد يدق سواها.. يعيد ترتيبهم في شيء من الزهو. أجد في حبك العزاء عن جميع المتناقضات التي نعيشها قسراَ. أن تجد من يهتم بك، يحبك، يحتويك حتى الذوبان، وتحتويه حتى الانصهار، عن الأسئلة اللامنتهية، عن أكذوبة الحياة، ولغز الوجود.

ما أصعب الانتظار! ولكن ما أجمله حين تنتظر فجراَ وردياً قادماً لا محالة! ينبعث منه أول خيوط النور، نحلق في فضاء الأمل بأجنحة العصافير وعيون الصقور وقلوب الزهور. ستبقى رسائلي ناقصة، حتى تكتمل بلقائنا.

*****

(ما قالته اليمامة حين خرجت عن صمتها)

ماذا علي أن أفعل وسط تلك الدياجير المعتمة؟ آه من تلك اللحظة! لحظة احتضار الروح العاشقة، تخرج من الجسد المسجى شيئًا فشيئًا، تتحرر من أغلالها المادية، تنشر عبقها في مدى يتسع لآلاف الأرواح الهائمة.

تطاير آخر حرف من كلمة (أحبك) بعدما سمعت أنك لم تحفظ العهد، لعلها تلك البلاد التي سافرت لها، أنْسَتك ما كنت عليه قبل رحيلك إليها.

ظل السؤال الحائر والذي أردده مرارًا.. ماذا اقترفت من ذنب؟

لم أكذب عليك في أي شيء ذكرته لك، وأما عن الموت والحياة فليس بمقدوري تحديده.

سأحيا بالموت أو أحيا بالحياة فلا يهمني؛ كنت أعلم جيدًا أن الموت قادم لا محالة. تذكرتُ دموعي والتي غسلتُ بها وسادتي مرات ومرات. أمي عندما اشتد عليها المرض، تساقطت خصلات شعرها واحدة تلو الأخرى، وجلستْ دون حراك؛ ساعتها سمعت أبي يردد دعاءَ يطلب فيه من الله أن يعجل بموتها، ثم تكررت نفس الأحداث مع أختي الكبرى.

شعرتُ بعدها أنني أقف في مصاف الأموات، وانتظرتُ رسالتك بفارغ الصبر. ولكنك لم ترد إلا بتلك الرسالة والتي أوردتْني مورد الهلاك، وحطمتْ ما تبقى من صروح الحب المشيدة.

شعرتُ بالكلمات ثقيلة على لساني، وأنا أقرأ آخر رسائلك. وما أدهشني هو حديثك عن المقدمات والنتائج وتلك الطريقة العقلانية في التفكير. كنت تتراءى أمامي مرتين: مرة بالقوة والتحدي، ومرة بالضعف والهروب. أعلم جيدًا أنك تجيد اختيار ألفاظك والتي لم تعد تحيرك. نظرتُ إلى نيتي الصادقة معك تتكور، وتسقط، وتصطدم، وتسيل منها الدماء بغزارة، ثم أنت تقف تنظر إليها بشفقة واهية وحزن مصطنع.

لك أن تعرف... أنت من بدأ الحكاية.

لك أن تعلم... أنني أصبحت امرأة قادرة على المواجهة. لم يبق مني شيء أتهمه بالضعف إلا موضعك. اختلطت حروف رسالتك بماء دموعي، الأوراق أصابها البلل وأخذت الحروف تبهت وتتلاشى، ولكنني أعدك وأنت تعلم بوعودي جيدًا، كانت تلك الدموع آخر ما أنفقه لأجلك.

ـ تبقى المسافات متباعدة.

ـ تبقى الحكايات مهزومة.

ـ تبقى البدايات مشرئبة بعنقها.

ـ تبقى النهايات في ركن الذاكرة الموحش.

(ما قاله العصفور حين خرج عن صمته)

لازلت أذكر لحظة الذوبان، حين ضغطتُ بيدي على يديك الرقيقة مودعًا، ولازلت أذكر تفاصيل الحكاية.

ولكنني...

لابد أن أقف مع نفسي للحظة، وأن أرقبها من بعيد في لحظة تحليق خارج الذات.

سامحيني..

فلم يكن بمقدوري أن أستمر، هي لم تكن أجمل منك، ولم تستطع السيطرة على قلبي المشبع بهواك، ولكنها كانت لحظة مجردة، لحظة من الواقع وبعيدًا عن الأحلام، لا أستطيع أن أنتظر حتى يأتيكِ المرض اللعين. عذرًا فمضطر أن أحدثك بتلك اللهجة التي لم تعتادي عليها مني، هذا المرض المتوارث والذي أفضى لموت والدتك وأختك الكبرى بعد سن الأربعين.

من البدايات نحصل على النتائج. أعلم أن لكل قاعدة شواذ، ولكنني لست في حاجة لأنتظر الشاذ من القواعد.

*****

مازال القطار يجري، ومازالت تستشف من صوته اللاهث أنفاسه الحائرة، لم تستطع الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها بأنها امرأة قادرة على النسيان، وأن دموعها هي آخر ما تنفقه.

كانت تلك الرغبة والتي تجرف في سبيلها أي وعد. كانت تعرف أنه مهما ابتعد فسيلتقيان صدفة، سيضع حقيبته على باب مدينتها. اختزلت خفقات قلوبهم مئات الكلمات. لم يكن بمقدورها أن تفعل سوى أن تظل بمقعدها، وتنتظره حين يتحدث.

ـ "هل تذكرينني؟"

ـ "مثلك لا يُنسى، مثلك يظل عالقًا في القلوب مهما اتسخت وتراكم عليها صدأ السنين.. لك أن نترك الحكاية والرسائل بجانب جثة الفاجعة المطوقة بألم الفراق. يا من أوجعتني حد التمزيق، لك أن تبقى بجانبي أو أن ترحل"

ـ "ماذا فعل الزمان بك؟"

ـ "لا شيء يذكر سوى أن لعنة الحب أصابتني في مقتل"

ما بيني وبينك وبينهم. بين رجال شاركوني بعض اللحظات الجامدة، وبين رجل شاركني الحلم بكل تفاصيله غير المرئية.

تبقى قصتنا منقوشة بماء الذهب والفضة على جدران المعبد الصامت للحب، تبدأ بقصاصات مكتوبة وتنتهي برجال وأطفال ونساء يبدؤون من حيث انتهينا.

انتظرتْ أن يبدي أسفه واعتذاره؛ فكانت تعرف أن أعذاره جاهزة، وأنه سيستدعيها دون عناء.

تسلل الوقت من بين أقدامهم.. وقفت لتحمل حقيبتها.. نظرت إليه، ثم قالت بلهجة اختلطت بالبكاء:

ـ "قد أتممتُ عامي الثاني والأربعين، ولم يحدث لي شيء، ولم أرحل من هذا العالم".

*****

للحقيقة وجوه كثيرة

(عايدة)

بشهقة عاليةٍ من شهقات الماضي، ودفقة من دفقات الحاضر.. الآن وبعد حدوث الجلبة الكبيرة، واندفاع الرجل ذي النجوم النحاسية ليلقي القبض على (أحمد)، وبعد صراخ واستجداء الشيخ (عبد الجواد): "اتركوه! لم يفعل شيئًا!"

نظرتُ إلى الأرض الطينية الواسعة، وبناياتنا القديمة الملاصقة لبيت (أحمد)، هناك عند الأرجوحة والساقية وشجرة الكافور.

جاء (أحمد) بحبل غليظ، وربط طرفيه أعلى الشجرة، وصنع لي تلك الأرجوحة. جلست ليدفعني، وأحلق في الهواء.. ولكنه لم يفعل، انطلق إلى الدار ليأتي بوسادة لكي لا يجرحني الحبل، وتبقى آثاره غائرة في جسدي بعد انتهاء اللعب. شعرتُ بالزهو عندما مهد لي مقعدي.

بجلباب أبيض وغطاء للرأس أبيض ناصع، ووجه مبتسم، يخرج الشيخ (عبد الجواد) من داره لأداء صلاة الفجر. كان أهالي القرية يهرعون إليه في جميع الأمور الفقهية، وخصوصًا المواريث. تخرِج من عين أمي نظرات التشفي حادة ملتهبة تأكل كل ما تقع عليه، تقول دائمًا من خلف الشرفة المطلة على بيته:

ـ "ماذا دهاك يا شيخ؟ وماذا عن اللحية البيضاء؟ أين الحقوق يا موزع الحقوق!؟"

*****

في حوار حاد اللهجة مع أمي..

ـ "كنتِ صغيرة لا تعلمين من الأمر شيئًا"

ـ "لكنه طيب يا أمي"

تنظر بحدة، ثم تقفز دمعة ساخنة على وجنتها، تتنهد بعمق، وتشيح بوجهها إلى الناحية الأخرى.

كنت أنظر إليه من شرفة منزلنا، وهو بجلبابه الفضفاض.. (أحمد) يجمع الغلال ويضعها في الأجولة ويأتي بها إلى دارنا. كنت أسرع في القفز على الدرج وفتح الباب. كان يأتي مبهور الأنفاس من ثقل ما كان يحمل، أحاول بشيء من الخجل أن أملم غطاء رأسي، وأحاول بشيء من الأدب المصطنع أن أخفض رأسي وأعاند رغبة ملحة في النظر إليه. كان العرق يتفصد من جبينه، يطيل النظر إلى الأرض، ثم يقول بصوت منخفض: "هذا هو محصول هذا العام".. ثم يستأذن بالانصراف، ويهرول مسرعًا إلى البيت.

كان الليل قد حل وغطى بسواده القاتم أرجاء القرية، الصمت كئيب لا نسمع سوى عواء الذئاب القادم من الجبل، وأصوات وقع أقدام على الطريق الخالي أو صوت حفيف الأشجار بفعل الرياح. تهب النسمات بلا معنى، وكنت انتظره انتظارًا بلا معنى أيضًا.

سألتُ عنك الساقية والأرجوحة والشجرة وحتى الغلال والأجولة، فأجابتني كلها بالصمت.

ـ "أنا خائب يا (عايدة).. لم أكمل تعليمي.. وأنتِ بنت مدارس خريجة الجامعة"

ـ "أنا مدينة لك بحياتي. أتذكر يوم اندفعتُ عند الساقية، وكدت أن أقع فيها وأموت مثل عمتي، واندفعتَ خلفي لتنقذني"

*****

طرق متعرجة في فدادين كثيرة.. أذهب إليه محملة بعبير بكر برائحة الزهور ورائحة الزرع والماء والطين.

كان الشيخ (عبد الجواد) يجلس على عتبة داره يندب حظه العاثر بعدما أخذوا (أحمد) إلى قسم الشرطة.

يحاول أن يجد حلًا لإخراجه. تجمّع حوله بعض من أفراد القرية. ارتديت ملابسي سريعًا، وسرت على أطراف أصابعي كي لا تشعر أمي بوقع خطواتي. ذهبت إلى بيت (أحمد)، استقبلني كل من في الدار بترحاب شديد، بدأت الرغبة تجتاحني، شوق يخبطني بقوة؛ أريد أن أدخل غرفة (أحمد)، ولكن السؤال المقيت والذي تمنيت ألا يكون موجودًا في قاموس اللغة.. (كيف؟؟) كيف سأدخل دون أن يشعر بي من في الدار؟؟ اقتنصت فرصة انشغال أهل الدار بالبحث عن طريقه لإخراج

(أحمد)، وتسللت خلسة إلى الغرفة. عندما أمسكت بمقبض الباب شعرت به يذوب في يدي، وصفعتني رائحة قوية أحسست بعدها بدوار شديد ورعشة أشد كان لهما وقع حاد في السيطرة على نفسي. الغرفة بسيطة في التكوين ولكنها معقدة جدًا في الإحساس بها. أعلم أنه يجيد الرسم، هناك في الجدار المقابل رسم بألوان زيتية غزالتين صغيرتين ورسم قلبًا وسهمًا يحتضنه ينفذ من بين جانبيه، وكتب على أحد طرفيه (A) والطرف الثاني (A).

أيضًا ما هذه الحيرة!؟ من تكون تلك التي يهيم فيها حبًا، ويكتب أول حرف من اسمها؟؟ قفزتُ من شدة الفرح؛ لا يوجد حرف العين في اللغة الإنجليزية.

*****

(الشيخ عبد الجواد)

وقفت سيارة الشرطة أمام الدار، وتجمع أهالي الحي لمعرفة سبب وجودها أمام داري، تقدم الشرطي في خجل مطأطئًا رأسه إلى أسفل لمعرفتي السابقة بوالده، قال بلهجة مرتعشة:

ـ "لقد أمرتُ بقية الأفراد أن ينتظروا بالخارج احترامًا لك.. اسمح لنا يا شيخ أن نأخذ (أحمد)"

انتابتني موجة غضب عارمة، صرخت في وجهه:

ـ "ماذا فعل!؟؟"

ـ "هي قضية مرفوعة ضده، وصدر حكم واجب النفاذ، ولكن ليس عندي تفاصيلها"

ـ "لابد أنه يوجد خطأ في الاسم.. نعم خطأ.. ضروري خطأ"

رددتها كثيراَ؛ لأن الأمر كان محيراَ، وما جعلني أكثر حيرة خروج (أحمد) في صمت كأنه على علم بما يحدث. اندفعت ناحيته وأمسكت بتلابيبه، حركته بعنف.

ـ "تحدث! ماذا فعلت؟؟"

لم يجب، وظل واجمًا شاخصًا ببصره بعيدًا عني، حتى ركب السيارة واختفى بداخلها. كنت كمتفرج يتابع مسرحية تراجيدية شديدة الصعوبة، اتهمت نفسي بالغباء مرات ومرات، انطلقت الأسئلة تتزاحم في رأسي وضلت الإجابات طريقها إلي.

خيم الحزن على أرجاء البيت. جلست أم أحمد في ركن منزوٍ.. تضع يدها على رأسها.

تهتز بحركة لاإرادية، تنشج باكية، ثم نهضت من مكانها، وصرخت في وجهي، وهمت أن تمسك بجلبابي ولكن منعها الحياء، وليس على لسانها سوى: "أريد ابني!!".

طرقت (عايدة) الباب، ودخلت في حيائها المعهود.. كم هي جميلة، وأعلم جيدًا أن (أحمد) يميل إليها بشدة، وكنت أنوي أن أصنع لهما عرسًا تحكي عنه القرية فترة طويلة، وازداد تمسكي بها بعد أن أقلعت والدتها عن مهاجمتي، وإلقاء عبارات الاتهام كل يوم؛ فنحن نعمل في أرضهم، ونأخذ نظير إدارتنا لتلك الأرض المزروعة ليس إلا، وهي لا تتفهم هذا الأمر على الإطلاق.

تحدثت (عايدة) بلهجة مرتعشة تخاف أن يظهر حبها لـ(أحمد) من خلال كلماتها، فتحاول التماسك قائلة:

ـ "هل ستذهب لتبحث له عن محامٍ يا عمي؟"

ـ "بالطبع.. سأذهب الآن"

أمسكتً بالعصا، ولملمت أطراف ثوبي، وانطلقت أبحث عن محامٍ كبير.

*****

(أحمد)

تُرسل الشمس أشعتها من بين القضبان لتخبرنا بقدوم صبح جديد، كما كانت تشرق علينا، ونستيقظ بمجرد سماع صوت يشبه دوي النحل.. صوت أبي الشيخ (عبد الجواد) وهو يقرأ القرآن. في تلك الليلة، وبعد سماع الدقات المتلاحقة، والصوت الأجش ينادي تلك اللحظة الفارقة، والتي أودعتني خلف هذه القضبان.

يهرول الشيخ إلى بيت أخيه، فيجده قد فارق الحياة تاركًا زوجة وبنتًا في عمر الزهور.

يراعي الشيخ شؤونهما، ويتابع الأرض المزروعة. كنت أذهب كثيراَ معه، ولا أعرف ما سر العداء الظاهر بين أبي وزوجة أخيه؛ فكلما رأته أغلقت باب الدار، وتمتمت ببعض الكلمات. سألته كثيراِ، فكان يجيب بارتداء ثوب الصمت، وتنتفض العروق في جبينه من شدة الضيق، يوزِّع نظرات الضجر على الدار والأرض.

وفي ذلك اليوم ذهبت بمفردي لعلي أجد تفسيراَ لما يحدث. وقفتُ طويلًا أمام الأرض والدار، فلم تأذن لي بالدخول كعادتها مع أبي. انتظرتُ طويلًا حتى خرجت (عايدة) ذات الوجه الملائكي.. لطالما تهيبت ذلك الموقف! قررت أن أنسحب قبل أن تتحدث، فكنت غارقًا في الخجل.. تحدثت قائلة:

ـ "لا تحزن من أمي، ولكن لك أن تعرف أن الشيخ يبيع محصول الأرض ولا يعطينا إلا القليل ويأخذ هو الباقي". وقعت تلك الكلمات على نفسي كالصاعقة. في تلك الأثناء مرض الشيخ مرضًا شديدًا، وأمرني بمتابعة الأرض، وكان موسم الحصاد. جمعتُ المحصول، وقمت ببيعه، وأعطيتُ زوجة عمي قيمته كاملًا، ثم قررت أن أستدين مبلغ بيع المحصول من أحد التجار، وأعطيه لأبي، على أن أسدده في وقت لاحق. لم أستطع الوفاء، وظللتُ حبيس هذه الجدران.

يا ليتني كنت صغيرا!

اليوم قائظ الحرارة.. شجرة التوت تعاني أسفل بيتنا القديم. يجلس (أبو سعد) تحت الشجرة ينتظر صلاة العصر، ينفث دخان سيجارته، ويتحدث عن (سعد) القابع في بلاد الغربة منذ ثلاث سنوات.. يُخرج من جيبه آخر (جواب) أرسله (سعد).. ينتظر أحد المارة الذين يجيدون القراءة، ثم يطلب من القارئ أن يعيد عليه ما كتبه (سعد) مرات ومرات.. حتى يمل القارئ، ويترك (أبو سعد)، ثم يمضي إلى طريقه. يحوقل (أبو سعد)، ويضرب الأرض بعصاه، وأحيانًا كان يداري دموعه بطرف ثوبه الفضفاض.. يتمتم: "لقد تأخر (سعد) كثيراَ..".

الصبية الكبار يلعبون داخل النادي في الملعب الكبير، أراهم بوضوح من شرفتنا، وأسمع صيحاتهم، وأتمنى أن أنضم إليهم يومًا ما. جاءت (فرحة) بشعرها المبتل، وبشرتها البيضاء، وعيونها العسلية، وفستانها الأصفر، وسيقانها الدقيقة كأنهما مسماران من عاج. كنت أداعب كرتي المصنوعة من البلاستيك، ويظل السؤال: "متى سيكون عندي كرة مصنوعة من جلد (كرة كَفَرّ)؟"

رمتني (فرحة) بحجر صغير، وابتسمت وظهرت أسنانها البيضاء في ضوء الشمس المبهر.. قرفصت بجواري، وسألتني بصوت متحشرج:

ـ "لماذا لا تلعب مع الصبية الصغار في الملعب الصغير؟"

ـ "أريد أن ألعب مع الكبار"

ـ "ولكنك مازلت صغيراَ"

ابتسمتْ مرة أخرى، وركنتْ بظهرها على سور النادي، ثم عبثت بالتراب أسفل الشجرة، فوجدت بعض حبات التوت المتساقط، أعطتني ثلاث حبات، وكما أكدت لي أنها نصف ما وجدت.

مدت لي يدها كي ألعب معها، فرفضتُ.. مطت شفتيها امتعاضًا، ثم قالت:

ـ "لا تريد أن تلعب معي، وعندما ألعب مع (سامح) تغضب ولا تكلمني!"

ساد الصمت فترة، ثم انصرفتْ تجر أذيال الخيبة تبحث عن الفتيات الصغيرات. مازالت الرغبة تطن بأذني: "أريد أن أكبر.. أن يرتفع صوتي بالبيت، وأضع المحاذير.. ما يجب وما لا يجب.. آمر وأنهي كما أريد، مثل أبي تمامًا.. وأن أسافر إلى العاصمة لأدرس مثل أخي الأكبر، وابتعد عن الدار فترة طويلة، أو أتزوج مثل أخي الأوسط، أو أعمل معلمًا مثل أختي، وأمسك بالعصا، وأضرب بها كل من يضايقني مثل (سامح) اللزج ثقيل الدم.. أريد أن أعمل مهندسًا مثل أبي.. لا.. لا.. طبيبًا ناجحًا مثل عمي.. تاجرًا كبيرًا مثل عمي الآخر".

"أريد أن أقف في الصف الأول حين تقام الصلاة، ولا يؤخرني الإمام إلى الصفوف الأخيرة، ويقول بحدة: (الأطفال دائمًا في الصف الأخير).. أريد أن أتخلص من بدني النحيل، وأصبح قويًا مفتول العضلات، وأن أجمع العديد من النقود، وأبني قصرًا كبيرًا، وأتزوج من جميلة الجميلات. (فرحة) لا تصلح، هي جميلة، ولكنها ماكرة، وحادة الذكاء، ولها شخصية قوية، ولا أريد من يراجعني في قراراتي".

*****

اليوم قائظ أيضًا...

رائحة الماضي تنساب من بين أوراق شجرة التوت العتيقة. أطل من شرفة منزلنا الجديد.. فأين البنايات القديمة؟؟ وأين (أبو سعد)؟؟ قالوا مات من زمن بعيد، و(سعد) لم يعد.

أين (فرحة)؟؟.. تزوجت سامح وسكنا العاصمة.

أين الملعب؟؟ أصبح برجًا سكنيًا كبيرًا.

أين أبي وأمي وأعمامي و........؟؟؟

رحلوا جميعًا إلى غير عودة..

كادت الكلمات أن تخنقني، وصوت أبواق السيارات يبدد لحظات التأمل، وما يزال الصوت حياً ينبض ويتحرك ويتلوى بداخلي.

"يا ليتني كنت صغيراً"

*****

الفجر الأسود

حانت ساعة الانتظار! الطريق يتأهب لوقع خطواته.. كلما اقتربت الساعة زاد دق أصابعي على الشرفة. أعود إليه من غياهب أيامي العتيقة، وأعود إلى حد التفاصيل الموحية، والذكريات تعود لتنهش ما تبقى مني. يزداد دق أصابعي، وتزداد لسعات الانتظار على ظهري بقوة تماثل قوة السوط.. خيوط النور واهية ما زالت تصارع بمفردها الضباب والظلام والجهل. استيقظتْ البنت الصغرى.. فتحت الباب، وزام.

ـ "يعني إيه يا ماما (قهر)؟"

شعرتُ بالتعب الشديد، وصفعتني موجات الحنين.. احتضنتُها بقوة، وجلسنا نحكي قصة الغول عندما تصفر الأجواء، وترتعد الوحوش لقدومه. أردت لو أحكي لها حكاية عن المظلومين المقهورين.. شخصت عيناها، ولم تفهمني! فعبثت بشعرها وأناملها ونامت، ولم أنم ومازلت أكتوي بهدير اللحظات، تطلعت إلى جسدي في المرآة.. لم أرَ شعري ووجهي وذراعي، ولكنني رأيت شيئًا يشبهني.. لا أدري ما هو. تدحرجت نظراتي في الشوارع الضيقة والدوران يطن برأسي، والأسد يزأر خلف الجدران.

*****

في ذلك اليوم...

ماذا قلتْ؟؟

ـ "كتبت ما أريد كتابته"

ـ "لماذا لا تنحني للريح حتى تعبر؟"

ـ "أنا لا أنحني مطلقًا"

ـ "هل كتبت بطريقة مباشرة؟"

ـ "استخدمت بعض الرموز.. ربما لا يستطيع الكثير فهمها"

اختنقت ضحكاتنا على الشرفة حين رأيتهم قادمين ناحيتنا. كنتَ بانتظارهم.. لملمت أطراف معطفك، وارتديت قبعتك، وذهبت إليهم، ولم تدبر من الأمر شيئًا.

صرختَ فيهم: "زوجتي وبناتي الصغيرات!".. لم يعيروك أي اهتمام.. أخذوك وانطلقوا إلى أعلى.

تبعثرت الأشياء على الأرض.. أخذوا الكتب والأوراق، وحتى الأقلام؛ ظنًا منهم أنها خناجر مسمومة نفذت بها جرائمك.

جريتُ نحو الباب لمنعهم من أخذك.. تبعتني بسرعة واحتويتني خلف ظهرك لتحميني من الطيور الجوارح.. أخذوك ومازلت أنتظرك.

*****

وقفت السيارة الآن أمام البيت، وأنت بداخلها.. في مقلتي الدموع فرحًا بعودتك.. لم أشعر بالبرد في تلك اللحظات.. تلاحقت أنفاسي، واستقبلتك استقبال الفاتحين.

ـ "ماذا فعلوا بك؟"

ضحكتَ، واصطكت أسنانك من شدة البرد، وداعبت بأناملك شعري وظهري.

ـ "لا شيء سوى بعض المعلومات، ولكن استغرق التحقيق خمس سنوات كاملة"

التصقت بك التصاق طفل خائف.. طوقتني.. وازددت التصاقًا بك.. ترتجف شفتاك ووجهك وعيناك وقدماك.. كل ما فيك يزأر أيها الأسد.

*****

هناك في أركانك المهملة من سنوات عمرك ستضع منها خمس سنوات كاملة في ركن منسي صامت، وتخبئه في أركانك العميقة، والتي تستوعب الكثير.

هممتَ بالوقوف، واتجهتَ ناحية الصغار.. أزحت الغطاء عنهم، فاستيقظوا.. تخطيت عتبة الباب، وذكرتهم بك وبملامحك، تلاقت العيون والأجساد، وجلست تتحدث عن الغربة، وكيف قاومت الصحراء، وذهبت إلى بلاد النفط كي تجمع لهم الأموال، ثم حكيت عن ظلمة الليل، وساعات النهار.. كانت كذبة، ولكنها محكمة.

اعتدلتُ في جلستي، وتمنيتُ أن تحكي لهم حكاية أخرى.. ضحكتَ، وأشعلت سيجارتك، وسحبتَ منها نفسًا عميقًا، ثم قلت:

ـ "سأحكي لكم حكاية التنين والمغارة، أو الملك الذي هدم كوخ السيدة العجوز، أو حكاية الغول"

فردت الصغرى قائلة:

ـ "ماما حكتهم لي من قبل، ولم نفهم منهم شيئًا"

تعالت ضحكاتنا، وذهبنا نرى ضوء الفجر القادم من بعيد.

*****

رأتني ولم ترني

أجلس بمفردي. كل شيء صامت. الهواء البارد يلف أرجاء الحجرة. أمسك بكتابي وقلمي الرصاص؛ لأضع الهوامش والخطوط أسفل التعبيرات اللغوية والصور الجمالية. طاف بمسامعي صوت خافت لأغنية أحبها، شعور بالسعادة بدأ يتسرب إلى نفسي، الصوت يتعالى شيئًا فشيئًا.. تركت الكتاب على المنضدة، وحلقت معه إلى عوالم أخرى، أطير معها ذهابًا وإيابًا.. أرى أحلامي أمامي، أسعد لرؤيتها.. أعدو خلفها.. تقترب، فأحاول احتواءها، فلا أستطيع.. تعود لتطير بأجنحة الفراشات.. تتنقل بين الحقول والأزهار جميلة المنظر صعبة المنال.. أنادي عليها، فلا تسمعني.. أقف حائرًا، وهي تتباعد وتتدانى.. هي لا تريد أن تسمعني.. أسمع من ينادي عليّ، أهز رأسي بأني سمعت، أعود لأطارد حلمي الكبير.. الطريق سهل ممتد، ولكنني لا أعرف تفاصيله.. الأرض شفافة لامعة كالفضة المذابة.. الصوت يتعالى.. انتبهت قليلًا لمصدر الصوت، ركزت بصري ناحيته.. فتحتْ الباب، وزام.. دخلتْ وهي تطوي ملابسي على ساعدها، تبتسم ابتسامة ماكرة، وتنظر من خلف نظارتها الطبية، وتقول:

ـ "عليك ارتداء ملابسك، وحلاقة ذقنك"

ـ "خيرًا إن شاء الله؟"

ـ "سنذهب لزيارة إحدى صديقاتي"

ـ "وما هي علاقتي بتلك الزيارة؟"

ـ "لا تُكثر من الأسئلة"

ـ "أشم رائحة غريبة في هذا الأمر"

ضحكت، وخبأت وجهها خلف ملابسي، وقالت بلهجة حادة:

ـ "هيا حتى لا نتأخر"

ـ "دعيني وشأني في هذا الأمر.. أنا مازلت لم أتخذ قرارَل في هذا الشأن"

ـ "هذه الزيارة مجرد تعارف، فلا تقلق"

ـ "دخولنا بيوت الناس ليس بالأمر الهين"

انقبضت ملامحها، وتمتمت بكلمات غير مفهومة، ثم خرجت، وأغلقت الباب خلفها بعنف.

*****

اتجهت السيارة تقطع الطريق، تجوب منحنيات ومنعطفات. أتابع الطريق بذهن شارد. استمرت السيارة في السير مدة طويلة، نظرت إلى أمي نظرة تحمل الكثير من الأسئلة، ولكنها لا تتحدث، تبتسم ابتسامتها المعهودة، وتربت على شعري برقة وحنان، ثم تحاول إزالة الأتربة العالقة بمعطفي، وتعيد وضع يدها على كتفي.

استقبلَنا كل من في الدار استقبالًا حافلًا، كلمات الترحيب تعاد مرات ومرات، تبادل المجاملات الرقيقة عبارات محفوظة سمعتها كثيرًا، حتى شعرت بالرتابة والملل.

جلسنا في انتظارها، اجتمع الأهل والأحباب، وأمطرت بوابل من الأسئلة التي تخص حياتي وعملي، وتلقيت الكثير من كلمات الإعجاب والترحيب، حتى جاءت بخطوات مرتعشة ترتدي فستانها الزيتي.. اقتربت، ثم وقفت أمامي دون أن تنبس ببنت شفة، نظرت بعينين حائرتين، لم تستطع إخفاء ارتعاشات جسدها المتلاحقة.. حدثت نفسي:

"هذا أمر طبيعي.. حياء العذارى"

تدارك الأهل الموقف، وانطلقتْ من تحمل عنها الأكواب، لتوزعها على الحاضرين.

جلست أمامي صامتة تطيل النظر إلى الأرض، الكلمات تلف وتدور أمامي، أسألها، فتجيب.. تعرف في كل شيء.. تعرف أسطورة إيزيس وأوزوريس.. تعرف

محاكمة سقراط الشهيرة.. عقدة أوديب.. تقرأ كثيراَ، وتكتب أحيانًا مثلي تمامًا، تقول عن الكتابة هي أرقى أنواع الفنون.

أحلق فوق البحر، فوق الموج المرتفع، أرى زرقة المياه، وقاعًا مليئًا بمفردات السعادة.. الكلمات تدور في فضاء الغرفة، والوقت يمر.. أسترجع ما قالته لبضع ثوانٍ، وأعود لأسألها، فتجيب وتسترسل.. الوادي الأخضر يفتح كتابه أمامي، البراح الفسيح يتسع، تتماوج الأحلام أمامي، وتعود لتكون قريبة جدًا.. الوقت دار دورته وعلينا المغادرة.

قطعت أمي الحديث، وقالت:

ـ "الوقت تأخر، والقادم أحلى بإذن الله"

انطلقت كلمات الترحيب مرة أخرى، والغريب أنني سعدت بتلك الكلمات في آخر اللقاء، كأن المكان قد تغير والأشخاص قد تم استبدالهم، والزمان أصبح يعدو بغير انتظام.

*****

تمت الخطبة.

جلستُ أحتضن أوراقي البيضاء، ورواية كانت تتحدث عن الأشياء الخارقة للطبيعة.. أستمتع بالكلمات المنطوقة على لسانها، وأحاول استرجاعها بشيء من الزهو. تذكرت حينما وقفت تنظر حائرة وترتعش، سأهاتفها لتخبرني بما كانت تشعر.

بدأت الحديث قائلًا:

ـ "من المتحدث؟"

بلهجة مازحة: "أو ما تعرفني؟"

ـ "أنتِ البحر"

ـ "الآن فقط!؟ في أول اللقاء كنت صامتًا كالحجر"

ضحكتُ، وضحكتْ بدورها:

ـ "هل وعيت الدرس؟"

ـ "أي درس؟"

تهمس بخجل: "درس اللقاء الأول"

ـ "نسيت أن أسألك لماذا وقفتِ أمامي وارتعدت فرائصك. أعرف أنني شاب وسيم، ولم أكن أعرف أنني إلى هذه الدرجة مؤثر"

ضحكت: "أوكنت تعتقد أنني لم أستطع أن أواجه جمالك الفتان!؟ لم تعِ الدرس إلى الآن.. أمامك متسع من الوقت لكي تفهم"

ـ "صحيح ماذا حدث؟"

ـ "ما حدث أمر غريب جدًا.. قبل أن تأتي بيوم واحد فقط رأيتك في منامي بكامل هيئتك التي جئتني بها"

ـ "هذه قصة تحاولين كتابتها، ولم تكتمل بعد؟"

ـ "إنني أتحدث بصدق.. هذا ليس خيالًا.. إنه حقيقة، وإن لم تصدقني فأنت وشأنك" قالتها بلهجة مازحة.

ـ "أكملي"

ـ "قبل أن أخلد إلى النوم تمتمت ببعض الأدعية والآيات، فحلمت بك.. بوجهك، وألوان ملابسك التي جئتني بها"

أنهيت المكالمة، وجلست أحدث نفسي حديثًا طويلًا وشاقًا، شعرت بالتعب من العدو وراء الطيور لأنتقي منها ما يناسبني، وأنا ألهث وأبحث عن ذاتي، وطائري ينتظرني هناك.. طاردت الحلم والليل والعتمة، وزاملت القمر حتى الصباح.

*****

زهور ذابلة

حين أعود آخر الليل بعد عملية بحث مضنية، صفر اليدين كالعادة، حزينًا أستمع لكلمات أمي تقول في صبر وثبات:

ـ "أنا متفائلة خيراَ، القادم أجمل بإذن الله"

أذهب إلى غرفتي أعيد ترتيب الأحداث؛ يمكن أن أجد في ذلك بعض العزاء لنفسي أن أظل وحيدًا فترة طويلة، أنظر إلى شهادة إتمام دراستي وأفتح أحد أدراج مكتبي وألقيها فيه بدون اهتمام، أكمل طعامي بدون شهية وأحيانًا لا أعرف ماذا آكل، قدمي مازالت تؤلمني من السير في الشوارع والأزقة، صوت الأغنية الصادرة من المذياع تحمل بعض الألم، تخترق جدار القلب دون عناء، تحرك ما بداخلي من شجون وتنزف أحداثًا. نخاف من الفراق، ولكننا نحب بضراوة، نعشق بنهم، هل لها عينان زرقاوان؟ شعر كشلال الذهب؟ حديثها السامر هل سيمزق وحشة الليل؟؟ هل ستتمرد؟؟ هل تحب العتاب؟ تقسو، تبوح، أم هي صعبة المراس؟ ربما تكون حلوة المعشر.. أم....

حديث طويل لا ينقطع في داخل الفراغ. أشعر بالوحدة، الظلام دامس، والمذياع يهذي كالمحموم.. أشعر بالتعب الشديد مع ضيق الأريكة.. تمددت، وحاولت بقدر الإمكان إبقاء جسدي عليها، تتلاحق عقارب الساعة والأغنية أصبحت تتلاشى شيئًا فشيئًا، لحظة الاحتواء، تنام أصابعها في كفي، ونصعد سلم الطائرة.. الأجواء ملبدة بالغيوم.. تقع في أسماعنا العبارة الشهيرة "برجاء ربط الأحزمة".. تسحب يدها بهدوء لتربط حزامها، ثم تعيدها لترقد بسلام في مخدعها الدائم. ما أجملها بحلة الزفاف! الطائرة تهتز بشدة، طاقم الطائرة يجري، أصوات وصياح، تدافع الركاب، ونحن على حالتنا من الثبات، فليكن ما يكون.. نحن معًا.. صوت الكابتن يقول مرتعشًا: "أرجو الالتزام بالأماكن".. الطائرة تأز بشدة وتتماوج،

ونحن معها يمينًا ويسارًا، وإلى أعلى وإلى أسفل.. شرخ في زجاج الطائرة، تتنهد بعمق، وتنظر خارج النافذة.

خلف الشباك الزجاجي نرى السحب تتحرك بعشوائية، ما بين السماء والأرض فضاء سحيق قد يبتلعنا في أي لحظة.. نستعيد بشيء من الثبات أول ما خطت أناملي لها.. رسالة ورقية على كتابها الجامعي، وآخر رسالة كانت على هاتفها قبل ليلة الزفاف، هدأت العاصفة، وسكن الحضور. وصلنا مدينة ساحلية جميلة وممتعة.. أمواج البحر شديدة التلاطم.. السَحْب شديد والقمر محاق، مد وجزر.. ها هو البحر نشم منه رائحة المحبين وطعم اللقاء، ووجهه الآخر حين ينتفض فزعًا من منظر للفراق. حلت جدائلها وارتمت بأحضان البحر.. شهق شهقة عالية، وزفرت الريح، وتمايلت الأمواج فرحًا بها.

ـ "احترسي.. الموج عالٍ، والسحب شديد"

ـ "لا تخف"

موجة تلو الأخرى، والبحر يتراقص، ونتراشق بالماء.. البحر سعيد، والأسماك تراقب الموقف، والقمر الغائب الحاضر.. شامخة بجسدها تتحدى وتخترق الأمواج وتتمايل، والبحر يرتعد ويزأر.. قلت متحديًا:

ـ "هل يوجد لحظات أجمل من تلك؟"

قالت في زهو:

ـ "بالطبع؛ فأجمل اللحظات لم تولد بعد، وأجمل الأزهار لم نقطفها، وأجمل ما في الحياة يظل في المستقبل"

البحر غدار مخادع، سحبها بعنف كأنه أحد المحاربين القدامى، صرخت وتطايرت جديلتها.. الماء يرتفع، ويرتفع، وهي تختفي شيئًا فشيئًا.. صرخت بدوري، وصارعت الأمواج: "لا لن تأخذها مني أيها الوغد!".. أطلت برأسها من بعيد، وهي تنادي: "توسلت إليه، فتركني".. عادت، وتبادلنا الضحكات.

صوت صادر من بعيد ينادي، أرفع جفوني بتثاقل، شعرت بضيق الأريكة، أمي توقظني لأقابل أحد الشخصيات المهمة، فيمكن أن يبحث لي عن عمل مناسب.. نهضت من مكاني، وأعددت العدة للسير مرة أخرى في الشوارع والأزقة.

*****

قصر الأفندي

الكرة على بعد أمتار.. ضوء خافت يتسلل من بين أغصان شجرة التوت.. الريح تعوي، وتهتز لها الأوراق. أتقدم خطوات في اتجاه الكرة، يصيح الأطفال خارج أسوار القصر، يطلون برؤوسهم من بين الفراغات الموجودة في باب القصر الحديدي.. وقع أقدامي على الأوراق الجافة يحدث صوتًا يشبه الخشخشة، أذكِّر نفسي بأن اللعب حماسي، ولابد أن أحضر الكرة.. تتدحرج الكرة أسفل الأشجار، أتقدم بخطوات مرتعشة.. السكون يخيم على المكان، يطل القمر بشعاعه الباهت.. وصلتُ إلى الكرة، انحنيت لألتقطها، وفجأة سمعت صوتًا يشبه الأنين الخافت، ثم لاحت أمامي فتاة صغيرة مهوشة الشعر ترتدي فستانًا أحمر اللون، تركز بصرها نحوي. صرختُ صرخة مدوية مزقت سكون الليل.. ركضتُ إلى الخلف مذعورًا.. نظرت ناحية الشجرة مرة أخرى، وجدتها مازالت واقفة.

استيقظت أمي من النوم بعد ما واصلت الدق على الباب الخشبي الكبير.. أسرعت بفتح الباب، وهي تعدل من طرحتها السوداء، ثم قالت في لهجة جادة:

ـ "لماذا تدق الباب هكذا؟؟ ماذا حدث؟؟ ولماذا تأخرت؟؟"

ـ "لا شيء يا أمي.. لاشيء.. ولكن أريد أن أنام في حضنك هذه الليلة"

احتوتني بذراعيها، وشعرتْ بارتعاش جسدي، فأردفت قائلة:

ـ "أنت خائف، وترتعد.. ماذا أصابك؟؟"

لم أستطع أن أتفوه بكلمة واحدة، تمتمت أمي ببعض الأدعية والآيات، ودثرتني بلحافها السميك، وأنا على حالتي من الشرود، في كل لمحة من عيني أرى الفتاة.. لم أستطع النوم؛ أصبحت صورتها في كل شيء حتى شقوق الجدران تتلاحم، وتشكل صورتها.

وفي الصباح استيقظت أمي، وجلست قبالتي، وقالت:

ـ "أظن أنك أخذت قسطًا من الراحة، وتستطيع الآن أن تحكي ماذا حدث.. هل تشاجرت مع أقرانك؟؟"

ـ "كلا يا أمي".. وحكيت لها ما حدث.. فشهقت شهقة عالية أسمعت كل من في الدار، ثم قالت:

ـ "ألم أقل لك أن هذا القصر مسكون ولا تلعب أمامه!؟".. دمعت عين أمي وقالت: "يبدو أن روحًا شريرة سكنتك".

سمع كل من في الحي بحكايتي، فكنا في استقبال دائم للضيوف، ونستمع يوميًا إلى سيل من النصائح والوصفات.. "عليك الذهاب إلى مقام الشيخ (....)، وتقضي ليلة كاملة هناك".. وآخر: "خذ هذه الورقة، وضعها في إناء به ماء، واستحم بها عند الغروب".. وثالث: "خذ هذا الإناء، وضع به قليلًا من الملح، واقرأ هذه الكلمات، ثم وزعها بأركان البيت".. فعلنا كل النصائح، ولا فائدة. أكد الأطباء أنه لا يوجد أي مرض عضوي، وأكد الشيوخ أنه لا يوجد أي روح شريرة تسكنني، ولكنني لم أشعر بتحسن؛ فصوتها يوقظني من النوم، وصورتها لا تفارقني ليلًا أو نهارًا.

ذات يوم سمعت جدتي تخاطب أمي: "هذا القصر كان يسكن فيه (أحمد) أفندي، وكانت لدية طفلة صغيرة، وذات ليلة اقتحم اللصوص القصر، وقتلوه هو وابنته، ومنذ تلك الفترة وهو مهجور.. ويقال أنه مسكون بأرواح شريرة، وما زالت آثار الدماء عالقة بسلم القصر".

وذات نهار قرر أحد شيوخ بلدتنا أن يسكن القصر، وقال: "ما عفريت إلا بني آدم، وأنا عايز حد مهم يطلعلي".. لم يستمع إلى نصائح السكان، وحمل أمتعته، وانطلق إلى القصر لا يلوي على شيء.

كانت القرية كلها تترقب ماذا سيحدث للشيخ، مرت فترة ليست بالقصيرة، ولا يوجد أي تغير. نظرتُ من النافذة ليلًا، فوجدت دخانًا كثيفًا يسد الأفق، والشيخ يهرول، ونصفه الأعلى عارٍ تمامًا، يصرخ ويستنجد. هرع إليه أهالي القرية،

فوجدوا أن أمتعته كلها أصابها الحريق، وعندما عاد إلى صوابه قال أنه كان يسمع صوتًا أشبه بأنين طفلة، وخرج لبعض الوقت، ثم عاد فوجد الأمتعة كلها قد أحرقت.

أصبح قصر الأفندي موضوع الساعة، فلا تجد في أي مجلس حديثًا إلا عن هذا القصر، وما يحدث فيه.

وقفت سيارة فارهة أمام القصر، وهبط منها رجل يحمل ملامح جادة، ودخل القصر، وسكن فيه، وفي الصباح ذهب إليه أهالي الحي، وقدموا له النصائح، ولكنه لم يستمع إليهم، ومرت فترة طويلة ولم يحدث أي شيء، وأصبح الأمر بالنسبة لي ولأهالي الحي في طي النسيان، وأصبحتُ أمر بجوار القصر مرات عديدة ولا أشعر بالخوف. وذات نهار وأنا في طريقي عائدًا إلى المنزل رأيت الفتاة تجلس بجانب سور القصر. ركزتُ البصر ناحيتها.. نعم.. إنها هي، بشحمها ولحمها، ولكن فستانها تغير، وأصبح أكثر تناسقًا، وشعرها لم يعد مهوشًا. انطلقتُ أعدو خلفها، فلما اقتربتُ منها لاحت في عينيها نظرات الفزع، وانطلقت تعدو داخل حديقة القصر. لم أستطع الدخول، ولكنني ظللت واقفًا أمام باب القصر.

تعالت الضحكات داخل إحدى الغرف، وسمعت أحدهم يقول:

ـ "أشعلتُ النيران في الأثاث، وانطلق الشيخ يعدو خارج القصر من الفزع، وكان عاري الصدر".. ثم تعالت ضحكاتهم مرة أخرى.

ـ "الحقيقة أنكَ بذلت مجهودًا كبيرًا في الحفاظ على القصر.. أشكرك شكرًا جزيلًا.. ولكن ليس لدي أوراق تثبت ملكيتي للقصر"

ـ "لا تقلق.. كل الأوراق موجودة، وموقفك القانوني سليم، وسوف نقنع أهالي القرية بأنك حفيد (أحمد) أفندي صاحب القصر الأصلي"

ظللتُ واقفًا أمام باب القصر الحديدي، مرت بضع دقائق، حتى وجدتها تخرج بصحبة أبيها، يمسك الرجل بحقيبة جلدية، وخرج الرجل الثري، والذي يسكن

القصر، خلفهم، وقال: "هذا أقل تقدير لمجهوداتك في الحفاظ على القصر طوال تلك الفترة".. قال الرجل في صوت منخفض : "نحن في خدمتك دائمًا يا سيدي".

*****

الأنامل المتمردة

ما زال الضباب عالقًا على النوافذ الزجاجية بعد ليلة ممطرة. أرسمُ أشكالًا مختلفة على النافذة، وأتغنى بأغنية تحكي عن.. "عشرين عامًا قضيتها في هذه الحياة، وأن لابد أن أسدل الستار على حوادثها المنقضية، وأن أتحمل مرارة الهجران، ولا أسأل عن الأماني التي أصبحت سرابًا".. هكذا كانت كلمات الأغنية.

أطل من النافذة، يدخل أبي مسرعًا، أسمع وقع أقدامه وأرى شبحه قادمًا ناحيتي، يفتح الباب بعنف، يرسل نظراته النارية، أنهض فزعًا، وأنزوي بعيدًا في أحد أركان الغرفة، يصرخ في غيظ: "لا تذهب إلى هذا الرجل مرة أخرى!!".. لا أستطيع الرد، أنظر إليه نظرة بلهاء، ثم أعود أمسك بفرشاتي وأكمل الرسم.. يتغير وجه أبي، ويرميني بعبارات التهديد والوعيد. تمضي برهة، وتدخل أمي لتكمل دورها، تبكي وتندب حظها العاثر في عدم اهتمامي بدراستي، وأن الرسم سيضيع مستقبلي. جلستُ في الركن المظلم أريد تمزيق تلك القيود.

في مساء اليوم التالي عدت إلى المنزل في ساعة متأخرة، وجدت عشرات العيون الغاضبة في انتظاري، علمتُ أن أبي لم يعد يحتمل ما أصنع، فأرسل إلى كبار العائلة.

تظاهرت بقبول عباراتهم، ونصائحهم الساذجة، ثم عدت إلى غرفتي، ولم أتردد لحظة في تكرار الذهاب إليه.. هو فنان المدينة الأول، والمعلم القيمة بالنسبة لي.

مازلت أذكر يوم جاء إلينا هو وابنته. كنت أيضًا أمام النافذة، نبهت أبي لوجوده، فتغيرت ملامح وجهه، وانقبضت قسمات أمي، ولم تستمر الزيارة بضع دقائق، ثم رأيته يهرول مسرعًا بعيدًا عن الدار، وبعيدًا عن صراخ أبي وتهديده بعدم الحضور مرة أخرى.

أسرعت إلى النافذة، وجدت الرجل في شدة الخجل، والفتاة ترسل نظراتها بعينين زائغتين، وقد انحسر ثوبها القديم عليها من شدة الرياح، تجر يد أبيها في فزع، ليتخلصا من هذا الكابوس المرعب. ذهبت إلى الممر الضيق أحاول أن أسمع همسات أبي وأمي عن هذا الرجل، علمتُ أنه أحد أقاربنا، ولكنه فقير معدم، يأتي بين الحين والآخر يستجدي عطفًا. سألت أمي كثيرًا عنه، فكانت تنفعل، وتأمرني بعدم السؤال مرة أخرى. ولكنني سمعتها ذات مرة تقول في ضيق: "هذا الرجل يظن نفسه فنانًا، ولا يجد ما يطعم به ابنته".

أسرعتُ بعبور الشارع حين وقع بصري عليه، لا أدري لماذا وقفت أتأمله بإشفاق وذهول!

لم يعرفني من الوهلة الأولى، ولكنني ذكرت له اسمي كاملًا، فابتسم، وازدادت ابنته التصاقًا به بعد سماعها اسمي. قال بلهجة مازحة: "إذا أردت أن تقرع كل ليلة من أبيك، فعليك أن تعرفني".

كان يخيل إليّ منظر والدي عندما يعرف ما أنتوي فعله، ولكنني حدثت نفسي قائلًا: "لقد قررت، وليكن ما يكون".. قلت له بلهجة جادة:

ـ "هل يمكنني زيارتك؟"

فرد قائلًا:

ـ "بالطبع، ولكن عليك أن تتحمل نتائج ما تفعل"

انطلقتُ معه إلى منزله، جدران قديمة، وأبنية متهالكة.. الضوء خافت للغاية، أغطية مهترئة، وخرق بالية ملقاة على الأرض. بقايا طعام مبعثر، ورائحة كريهة تنبعث من كل الغرف. تبعتُه إلى حجرة مليئة بالرسوم والألوان، لوحات مرسومة بعناية ودقة، كادت أن تنطق من شدة جمالها. علمت منه أن هذه الدار كان يقطن فيها جميع أفراد العائلة، وعندما أصبحت قديمة أراد كل فرد أن يستقل بذاته، أما هو فعلى حالته منذ كنتُ طفلًا، لا يعرف عملًا سوى الرسم، ولكنه لم

يعد يجدي لجمع النقود، ولم يعد يحقق بعض متطلبات الحياة، منذ ذلك الحين وأنا أذهب إليه يوميًا.

كانت الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. دقات متلاحقة على الباب، استيقظ كل من في الدار. هرول أبي ليفتح. أسرعت إلى النافذة، فوجدته هو وابنته على نفس الحالة التي كانوا عليها في الزيارة السابقة. رحب أبي به ترحابًا شديدًا على غير العادة، في تلك اللحظات كدت أن أفقد عقلي.. ماذا حدث لكي يتغير أبي؟؟ وما الذي جاء به في هذه الساعة المتأخرة؟؟ وما لبثت أن سمعت صوت أبي ينبهني بوجوده، هبطت الدرج مسرعًا، فرأيته يجلس في راحة واطمئنان، وابنته تجلس بجواره في سكينه. أردف أبي قائلًا: "فلتصافح معلمك".. وخرج أبي، وتركنا.. نظرت إليه في ذهول، فأردف قائلًا:

ـ "إن بيت العائلة سيباع لرجل أعمال كبير، وسنأخذ منه مبلغًا كبيرًا"

دخلت أمي علينا، وقد انطبعت على وجنتيها فرحة عارمة، كأنها صغرت عشرة أعوام.. أجلست الفتاة إلى جوارها، وداعبت شعرها، وقبلتها، ودخل على إثرها أبي يعيد كلمات الترحيب مرة أخرى.

*****

انكسار

الوقت يداهمني.. تتسارع عقارب الساعة في التلاحق. أشحت بوجهي بعيدًا عن المرآة، هربت منها ومن نظراتها المتتابعة، والتي تجوس أرجاء جسدي وتخترق أدق تفاصيله. كان النوم هو الشيء الوحيد الذي ينتزعني انتزاعًا من غيابات الوحدة والشعور بالضعف والتلاشي.

ما أصعب أن تُكسب وجهك ملامح الجد وأنت خائر القوى، منهك العزيمة، فاقد للزمن! كنتُ أسأَل نفسي كثيرًا: "هل يكفي النوم؟" هل يستطيع النوم أن يرمم آثار الزلزال القابع بداخلي؟

أنا وأختي زهور بأوراق رقيقة، اقتلعت جذورها، وظلت تترنح أمام العواصف، وتئن تحت وطأة الشمس الحارقة. كانت أيامي عبارة عن رحلات تنتهي لذتها بانتهاء اليوم، ثم أودعها جبال النسيان. سئمتُ طعم ولون ورائحة البكاء. أحدق في المرآة بمنتهى البلاهة، أريد أن أحطمها كما مزقت ما بي من أنوثة راحلة بعد فترة قصيرة من الزمن. الرغبة تزداد وتئن بداخلي، لم تعد تحتويها شهقاتي وزفراتي المتتالية.

ألقيت ما في يدي ناحيتها، تحطمت وتطايرت أشلاء وشظايا. نصف وجهي أيضًا مازال يظهر بداخلها، صارت الأرض عبارة عن نثار زجاج متطاير. جرحت قدمي، وسال الدم منها بغزارة، وتساقط على أرضية الحجرة، وما زال نصف وجهي في المرآة يرتجف ويئن من شدة الألم. جرح غائر في قدمي، وأغوار وأخاديد سحيقة داخل جسدي، تنفث جميعها دمًا لزجًا له رائحة كريهة.

لم أكن بحاجة إلى المرآة لكي أعرف؛ فشهور قليلة، وأودع عقد الشباب وياسمينة العمر. صرير القلم ينتهي. أراه ينظر ناحيتي، أشيح بوجهي بعيدة عنه، وبعد انتهاء العمل أترك يدي جثة هامدة في يده.. "تحية الوداع".. أي وداع يا كاذبة!؟ كيف يتحول هذا الجسد، وهذا العقل الواعي المدرك إلى نبضات خفية تسري في

أوصالي؟؟ وكيف تتحول الحياة إلى واحة وارفة الظلال عندما أراه في الصباح؟؟ وكيف يتلاشى الماضي والحاضر والمستقبل بنظرة أجد فيها بعض الحب؟؟

حان وقت الزيارة لأختي الصغرى، لم يبق لي سواها. كنت منكرة لوجود الحب.. كنت أعتقد أنه يوردنا موارد الألم والفرقة، كنت أخدع نفسي، فيعود الحنين المتبقي ليشدني، ويزيل الغشاوة، ويعلق بجدار القلب الواهن، فمازلت أرتدي ملابسي الفضفاضة، ونظارتي السوداء والتي تغطي ما يزيد عن نصف وجهي، وأذهب كذلك إلى العمل، سدد الزمن ضربته القاصمة.. كنت أعتقد أننا بمنأى عنه. ذلك المرض اللعين بدأ بشحوب وجه أبي، وكل يوم يمر يزداد الأمر سوءاَ، فكان القدر أسرع من الأمل، وكان هو نفس المرض الذي رحلت به أمي، وتركتنا أنا وأختي كالريشة في مهب الريح. لم أجد سبباَ واحدًا مقنعًا للتعلق بتلك الحياة، فلا أجد السلوى في أب راحل وأم راحلة، وحب أخشاه وأخشى قوته وسطوته.

اجتمع الأهل، وأطل علينا الطمع من بين براثنهم المخضبة بدماء الظلم. قاومت وتصنعت التماسك أمامها، وبداخلي طفلة تائهة انهارت قواها وخارت عزائمها. عكفت عليها حتى تصبح قويه متماسكة، حتى ذهبت هي الأخرى لبيت زوجها.

رائحة الذكريات تهب علينا، ومازلت ممسكة بكوب من القهوة وظل صغيرها يتابعني ببراءة، ويلوح لي بيده يريد أن يعطيني دميته.. أجلسه بجواري، وأربت عليه بحنان ودفء، ثم أنظر إليها، وأتابع حديثي معها. ظلت تعاتبني علي عدم اهتمامي بنفسي، وأن عجلة الزمن تدور وتسحق معها أعمارنا. أتذكر زميل العمل، والذي يقدم فروض الولاء والطاعة كل يوم، ولكنني أرد عليه بقسوة، وأرسم له حدودًا من الوهم، لكي لا يتخطاها. عندما أتحدث في العمل يقف الجميع احترامًا.. كوب القهوة ما زال دافئًا، أشربه في عجالة لأعود أدراجي. هبطتُ الدرج مسرعة، ترنحت قليلًا من شدة البرد، ثم فاضت السماء بالمطر الغزير، أظلمت الشوارع، وبدأت أتحسس الخطى، يتردد صوتي في الدياجير المعتمة. أفكر بصوت مسموع لا أحد يتابعني، أريد أن أقطف زهرة مبللة بماء المطر، أجد فيها رائحة الصبا والشباب المتبقي، الشخصية المثقفة والطموحة

امتصتها الأيام قطرة قطرة، زميلي في العمل.. لا.. لا.. هذا الداء العضال، ولكنه رجل أحتمي به في تلك العتمة.. همس لي ذات يوم قائلًا:

ـ "لماذا تتعمدين الهرب!؟ ولماذا تجعلينني أتسول حبك!؟ الحب هو الحياة"

ـ "الحب موت"

ـ "الأمل في اللقاء، هذا ما أعرفه"

ـ "بل الأمل في الفراق" قلتها بلهجة اختلط فيها الصوت مع الدموع.

ـ "ستصبحين الماء والهواء بالنسبة لي"

ـ "فاقد الشيء لا يعطيه.. ليس عندي ما أمنحك إياه"

شد على يدي مودعًا، على وعد بلقاء آخر قريب. ابتلعه الشارع، وأمواج البشر المتلاحمة.. كنت أريد أن أبكي بين حناياه طويلًا.

ماذا لو تزوجته كما أراد؟؟ لماذا صددته عندما قال: "أنتِ زهرة حياتي"!؟ قلت له مسرعة: "ولكن لك أن تعرف أن بعض الزهور سامة"

تطاردني أضواء السيارات، يداعبني ضوء القمر المختنق بالسحب الكثيفة.. لم أخطئ عندما رفضتُ الارتباط بأحد أقاربي، كان يصغرني بأعوام، وكانت نظرات أبيه على ما خلّفه لي أبي واضحة وضوح الشمس. تذكرت أختي وزقزقة طفلها، وتلويحه لي مودعًا.

أخيراَ وصلت إلى البيت بملابسي المبتلة، بدلت ملابسي، وقررت أن أواجه المرآة، ولو لمرة واحدة في حياتي.

*****

حرمان

تجلس في ركن بعيد، تتحدث بمنتهي الرقة، تتحسس شعرها بين الحين والآخر، وهو ينظر إليها مشدوهًا.. تبدأ حديثها قائلةً:

"لا أحد يراه غيري.. عشنا معًا عمرًا طويلً.. عناق كأنه أبدي. لم أعرف معه طعم السأم والضيق. كنا نخرج سويًا إلى ندوات الأدباء ومعارض الرسامين ليلًا؛ لأنه لا يأتي سوى بالليل، وكنت أحدثه دائمًا"

ـ "لماذا لا تظهر للناس!؟"

ـ "أما يكفيك أن أخصك وحدك برؤيتي ومجالستي؟"

ـ "بالطبع يكفيني، ولكن الناس يعتقدون بأني أتحدث مع الهواء"

ـ "الدنيا مليئة بالغرائب، ولا تهتمي بكلام الناس"

"للحظة خاطفة، قلت إنها أوهام، ولكنني عندما رأيتك قادمًا بوجه شاب في مقتبل العمر فرحت وتداركت نفسي سريعًا".. طرأ على ذهني سؤال.

ـ "لماذا تظهر إليَ بصور مختلفة؟؟ فبالأمس تسللت إليّ ليلًا بملابس محارب قديم بعد أن أنهيت إحدى الروايات التاريخية؟"

ـ "ظهرت إليك بالشكل الذي ترغبينه"

اقترب مني، ثم قال وهو يمسك بيدي: "لا تقلقي.. ما دمنا مع بعضنا سنخترق كل الحواجز، وسنعيش معًا رغمًا عن الناس".. ثم وقف على النافذة، وطار في الهواء.

صمتت لبرهة، ثم تنهدت بعمق، ووزعت نظراتها على الجالسين في الغرفة، ثم أردفت قائلة:

ـ "كنتُ في كل ليلة أستعد للّقاء؛ أتزين وأرتدي أبهي ثيابي، ثم أنتظره كثيرًا فلا يأتي. أسارع في الذهاب إلى النوم؛ فلعله يأتي في المنام. كنت أعتقد أنك قادم كي

نرتمي بأحضان الليل الدافئة، كي ننظر الدنيا من داخل جوهرتنا المكنونة، ننصت لبعض الأغاني، ثم ينبض قلبك الصغير، تعيد ترتيب شعرك بعد ما عبثتْ به رياح الشتاء، تنظر بعينيك البريئتين نحوي وتسترق النظر مرة تلو الأخرى.. ولكن عندما يحل الصباح، وترسل الشمس أشعتها الذهبية، ترحل سريعًا.. يحل هذا الصباح ضيفًا ثقيلًا على قلبي، ينهش جرحي المفتوح فيغوص داخل جسدي؛ فعندها لن يكون لدي خيار سوى أن أتركك تذهب.

أذهب لأقرأ.. ربما يكون في بطل الرواية شيء منك، لا أريد أن أحكي لك ماذا أفعل عندما تغادرني، لا أسمع إلا أغاني الخريف.

تلفظني جدران المنزل، تتأفف مني النوافذ، لا أريد أن أخبرك عن بعض الشعيرات البيضاء التي تسللت خلسة إلى ليل شعري. كنت أعلم أنك لا تحب الحفل الراقص، أعرف أنك تميل إلى الكلاسيكية، وأنا أيضًا أحب أن أفهم ما يتناهى إلى مسامعي، كنت أعاني الوحدة، ولكن عندما عرفتك أصبحت أعتني بكل تفاصيل حياتي. لا أستطيع العمل إلا إذا كنت بجانبي، أستشعر وجودك وأحدثك فيما أعمل، لا تكلمني، لا عليك؛ أنا أعرف ماذا تريد دون أن تتحدث، كلمات الحب تصل إلى أسماعي دون أن تنطق بها، أعلم أنك تخجل، أحلم بحديثك والذي يحتوى على قلب طفل، وهمسات عاشق مكتمل النضج.

لا أعلم في الدنيا سواك. سأنتظرك الليلة عند الصخرة الرمادية أعلى شاطئ البحر.. لا تتأخر.. أسرع حتى تبتلعنا هوة الظلام، فتختفي معها حواسنا، وننطلق سويًا بعيدًا كما تعودنا. سيطل علينا الصباح بسأمه المعهود، سأكون رفيقتك الليلة يا صغيري".

تنهي حديثها، وتنظر إليه بشغف.

*****

يطوي الطبيب أجندته الخاصة.. تعتدل في جلستها.. ينتظر الأب في الخارج.. يتأمل الطبيب ما تم كتابته بعد انتهاء حديثها، ينظر إلى الأب، ويقول:

ـ "هي حالة نادرة الحدوث، وتتطلب مراحل عديدة للعلاج؛ فهذا الشخص الذي تتحدث عنه ليس له وجود. يمكن أن يكون بطل رواية، أو نجمًا سينمائيًا، وهذا سيتضح لنا من خلال الجلسات المقبلة".

*****

وجه طفولي

(١)

تحرك الشيء الساكن بداخلها، وبدأت تشعر بالألم الممتع، والذي يعقبه سعادة غامرة.

ظللنا نفكر ونبحث له عن اسم، ونفتح مدرسة الخيال في وجهه وطوله وحجمه، حتى جاء إلينا من عالمه الآخر. تذكرتُ حين حملته لأسجل اسمه في سجل المواليد.. صرخ الموظف في وجهي: "أين الأب!؟؟" ولما علم أنه أنا نظر إلي من أسفل نظارته السميكة نظرات الدهشة، ثم أردف:

ـ "أنت مازلت صغيراَ على الزواج والإنجاب"

ـ "لست صغيراَ يا دكتور؛ أحمل بين جنباني ثمانية وعشرين عامًا كاملة"

ـ "ولكن وجهك يخبرني بأنك ابن التاسعة عشر"

ضحكتُ، وضحك بدوره، ثم حملت طفلي، وانطلقت به إلى البيت.

*****

(٢)

نفذت أشعة الشمس من بين الفتحات الضيقة أسفل النافذة، استيقظت وأيقظته، فتح عينيه بتثاقل شديد، فركها بقوة، تمطى وهو يقاوم آثار النوم.

ـ "ماذا يا أبي!؟"

ـ "انهض لتذهب إلى مدرستك"

ـ "مدرستي!!"

ـ "نعم، اليوم أول أيام المدرسة"

ـ "لماذا أذهب إليها يا أبي!؟"

ـ "لكي تتعلم، و...."

جلس متربعًا على الفراش، ينتظر مني أن أحكي له حكاية طويلة.

ـ "الوقت تأخر.. عليك بارتداء ملابسك"

أغلقتُ حقيبته الجلدية جيدًا، وعلّمته كيف يضعها على ظهره.. هبطنا الدرج ومضينا في طريق الذهاب إلى المدرسة، وزع نظراته على أمواج البشر المتلاطمة الرائحة والغادية، ثم تململ في مشيته.

ـ "أبي، الحقيبة ثقيلة"

ـ "تحمل.. لأنني لن أحملها عنك كل يوم"

بدت نظرات الضيق على صفحات وجهه البريء، والذي احمرّ من شدة التعب. تذكرتُ أول أيام دراستي.. ذهبت إلى المدرسة بمفردي، وبقيت آثار حمل حقيبتي الجلدية على كتفي عدة أيام. كنت أود أن أخبره بأن الطريق طويل مليء بالعقبات والعثرات، ستتعلم ثلاثة عشر عامًا، ويمكن أكثر؛ ما بين آمال وطموحات، لطمات ولثمات، طرق ممهدة وأخرى وعرة.. تحب وتكره، وقد يستحيل الحب إلى كره والعكس، يمكن أن تجلس بين الماء والنار.

هنا في عالمنا الجميع لا يرضى عن الجميع، الحياة قرار فاتخذ قرارك بمفردك؛ لأنك وحدك ستتحمل تبعاته. لن تعطيك الحياة كل ما تصبو إليه، وكن واثقًا من نفسك لأبعد حد. شعرتُ بأنه لن يفهم شيئًا إذا أخبرته بكل هذا الحديث، فلزمت الصمت إلى أن وصلنا إلى المدرسة.

تذكرت حينما حملت أوراق تقديمه للمدرسة، وصراخ الناظر في وجهي: "الأخ لا يصلح لإتمام الإجراءات، ولابد من وجود الأب".. شعرتُ بالحرج الشديد، وأمسكت بالقلم، ووقعتُ على الأوراق بصفتي الأب. لم يصدقني إلا بعدما

أخرجت له إثبات شخصيتي. ألجمه الحرج وكرر اعتذاره مرات ومرات، وقال العبارة الشهيرة: "كنت أعتقد أنك مازلت صغيراً"

*****

(٣)

في مساء هذا اليوم ظهرت عليه علامات الإعياء الشديد، قلّت حركته وجلس في ركن بعيد، لا يتحدث ولم تبد منه أي حركة، ثم بدأ في القيء المستمر، أصابه الهزال، وبدا على وجهه الشحوب. صرخت زوجتي، وهرعت إليه تتفحصه، حين وجدت أن بعض الأقراص التي تتناولها لمنع الحمل غير موجودة، تسمرنا في أماكننا ننظر إليه بهلع شديد، انطلقت زوجتي إليه وهزته بعنف تسأله عما فعل، رفع عينيه بتثاقل، ثم قال:

ـ "أخذت الدواء مثلما تفعلين"

حملتُه، وهرولت به إلى المستشفى القريبة من دارنا، وبعد فحصه من طبيب الاستقبال أكد بعدم وجود خطورة.. "لأنه ذكر".. ولكن لابد من إجراء عملية لغسيل المعدة.

دخلت الممرضة تعد الغرفة لإجراء العملية.

ـ "هل سيعطونني حقنة يا أبي؟؟"

ركزت الممرضة بصرها ناحيتي، ثم شهقت بصوت مسموع، ولم تستطع أن تخفي ضحكاتها حين تحدث، ثم قالت ضاحكة:

ـ "أنت الأب!؟ لماذا أسرعت بالزواج!؟ فالعمر أمامك مازال طويلًا!"

*****

(٤)

زوجتي تكرر النداء بالخروج..

ظللتُ بمفردي فترة أتأمل بعض الصور، وأنظر في المرآة..

صورة تجمعني به في إحدى الدول الخليجية، يرتدي فيها ملابس الخليج عندما كان صغيراً..

صورة أخرى عندما أنهى دراسته..

صورة يرتدي فيها حلة الزفاف..

يقطع الصمت صوت أجش من خلف الباب، ينبهني بضرورة الخروج لتناول الغذاء.. أرد بسرعة: "إنني قادم يا بني".

*****

نداء

(١)

كان جسدي يرتعد، وأنا أسمع صرخته تشق سكون الليل.. انطلقتُ إليه واصطدمت بقطع الأثاث مرات ومرات.. تعثرت كثيراَ حتى أجد زر الإضاءة.. سقطت على الأرض، وأحسست بألم شديد بقدمي.. جاهدت نفسي في القيام مرة أخرى، حتى وصلت إليه، وأيقظته، وحملته بين ذراعي.

احتضنني بقوة، وغفا قليلًا على كتفي لشعوره بالأمان. أبعدته، ورفعت وجهه ناحيتي برفق.

ـ "ماذا بك؟"

ـ "لا شيء يا جدي، سوى أنني كنت أركب دراجتي الحمراء، وأسير بها أمام الدار، وكنت ممسكًا بألعابي.. كنت أنا الشرطي يا جدي وأطارد اللصوص"

ـ "هذا حلم جميل.. لماذا صرخت!؟"

ـ "انتظر يا جدي حتى أكمل لك. عندما ركبت دراجتي الحمراء نظرت فلم أجد رأسي.. كنت أرى جسدي كله ما عدا رأسي.. بحثت عنها كثيراَ فلم أجدها".

طوقته بذراعي، وضحكت بقهقهة، حتى أزيل حدة توتره.

ـ "هذا يسمى كابوسَا. إذا رأيت شيئًا كهذا عليك أن تبصق على يسارك، وتستعيذ بالله، ولا تخبر به أحدًا"

ـ "لماذا يا جدي لا أخبر أحدًا!؟"

ـ "لكي لا تتأثر به مدة أطول"

ـ "كيف يا جدي؟"

ـ "لا تكثر من الثرثرة. هيا لتعود إلى النوم، وإلا سأجعلك تنام مع أبيك وأمك في الطابق العلوي"

ـ "لا.. لا يا جدي.. أحب أن أبيت معك أنت وجدتي"

قبلته بين عينيه، أعدت وضع الغطاء عليه، ثم انصرفت.

*****

(٢)

دخل مسرعًا يحمل دراجة حمراء (جديدة)، يوزع نظراته على أرجاء البيت، يفتح أبواب كل الغرف ينادي عليه بحروف متقطعة، علامات الذعر ارتسمت على وجوهنا في البيت.

ـ "أين ذهب يا أبي؟"

ـ "استعذ بالله، واجلس"

ـ "هذه دراجة حمراء أحضرتها من أجله"

وضعت يدي على جبهته، فأبعدها على الفور.

ـ "أنا لا أهذي... أنا لست محمومًا"

دخلت والدته في بكاء حار، أمسكتُ بيده وقبضتُ عليها، تلوتُ بعض الآيات القرآنية، فانتفض جسده، قاومت دموعي كثيرًا، نظر إليّ، ثم أردف قائلًا:
ـ "اسمعني يا أبي.. كنت في الصباح أداعبه، وأعطيته بعض النقود ليشتري حلوى.. عاقبته لأنه يلعب كثيرًا في الشارع والسيارات رائحة وغادية..".

تتشنج أطرافه...

يرتطم بالواقع..

يتقوس جسده...

يغيب.....

(٣)

ما زلت أردد "ماذا عليَ أن أفعل!؟" حملته بين ذراعي، وركضت به كالمجنون. هكذا قيل لي، يسيل الدم من رأسه بغزارة، مغمض العينين، لا يتأوه، لم تند عنه أي حركة. صرختُ بأعلى صوتي لا أعلم وقتها لماذا صرخت، ومن كنت أستجدي ليحرره من براثن الموت! "جدي، كنت أسير في الشارع بدون رأسي".. قفزتْ تلك العبارة أمامي.. صرخت مرة أخرى لتذكرها، المستشفى تبعد عن دارنا مسافة بعيدة.. هل أكون ركضت كل هذه المسافة بهذا الجسد الواهن!؟ نظرت إليه، وحدثته: "ها هي رأسك يا صغيري بين ذراعي". مسحتُ آثار الدم من على رأسه، ووضعت قطعة من القماش على الجرح النازف، الدم يندفع منه رغمًا عني، انطلقت صرختي الثالثة، وهم ينتزعونه مني انتزاعًا. قرر العقل أن يستجيب لنداء الواقع، وجاءت رسالته محملة بالسواد، وكل الرسائل انتهت إلى شيء واحد.

*****

(٤)

خرجت الكلمات إلى حيز الأسماع قديمة مهترئة، صناديق قديمة تفوح منها روائح من الماضي. تهمس زوجتي في أذني أن عليها أن تذهب الآن. أرفع رأسي في بطء وتثاقل وألوح لها بأن تمضي. تسارع بمسح دموعها، قبل أن يقع عليها بصري، فنتقاسم الحزن معًا كما في سابق عهدنا المنقضي. أسقط على أقرب مقعد كشجرة بدون جذور، يتردد الصوت، ويقع في أسماعي: "جدي.. يا جدي..". أقف كالملسوع أبحث عنه في كل مكان لا أجده، أجد حقيبته وبعضًا من أقلامه، تصدر مني رغمًا عني آهة ممتدة.. كان صوته يملأ أركان الدار، صوت يولد منه الفرح والضوء والفراشات التي ترفرف بأجنحتها تنشر عبق الحياة. يتكرر النداء.. "جدي، لماذا لم تُحضِر لي حلوى اليوم؟". أرى دراجته المحطمة عليها بعض من آثار الدم، أعود لبداية العمر.. لم يكن يراودني حلم الثراء، ولكنني كنت أحب العمل. كان السوق القديم مكاني الذي ألازمه.. يتهافت أصحاب المحلات لأعمل

معهم؛ حيث كنت أتمتع ببعض القبول لديهم، أخيرًا تحقق حلمي بامتلاك أحد المحلات، وبدأت أسير في طريقي بدون خوف. جاءت لتبتاع بعض الأغراض.. انتابتني تلك القشعريرة وتلك الحالة التي تجعلك تفقد صوابك، فترى نفسك جوادًا جموحًا لا يريد أن يروض تلك الحالة الفريدة والسامية والتي يسمونها الحب. وفور إبلاغي بقدوم أول مولود اكتست الحياة بلون السعادة. مضى يتحسس طريقه وبدأت شيم التمرد تظهر عليه، كنت كثيرًا ما أقول لنفسي تلك الفترة كلنا عشناها فيها شيء من التمرد والتنمر وعدم المبالاة، ولكنها استمرت معه. كان يمقت الدار والحياة، كثير السفر، وكثير الغياب، عصبي المزاج، يدخن بشراهة، حتى اسودّ ما تحت عينيه. طالما باتت والدته وعيناها دامعتان إلى أن تشرق الشمس. قرر الزواج من فتاة لم تكن ذات أصل طيب، ولكنه قد هام فيها حبًا. لم أملك من الأمر إلا أن أوافق لعل حاله ينصلح، مرت السفينة في البحر المتلاطم، عبرت من أعاصير وأخاديد ونوات، حتى جاء هذا اليوم الذي أنجب فيه هذا الطفل، تركتُ الحياة والعمل وعكفت على حبه، وعادت السعادة تسكن أطرافي شيئًا فشيئًا. كان صباحًا يحمل دراجته الصغيرة ليلهو بها في حديقة المنزل.

جاء ذلك اليوم الذي لم ينته بعد، ولم تبزغ له شمس. هبط ابني مسرعًا ينجز بعض أعماله، هبط الطفل خلفه مسرعًا. دون أن يشعر تحرك بسيارته دون وعي، وقد ركض الطفل خلفه، فحطمه هو ودراجته، وفارق الطفل الحياة. انتابت ابني حالة من الهياج العصبي، وأودع مصحة للعلاج النفسي.

في هذا الصباح ذهبت للاطمئنان عليه. صار كل ما ألمسه بيدي أعتقد أنه خيال، ألجمت الكلمات وقيدت بمقعد من حديد، وجفت أغصان الأشجار، وتجمدت أطرافي، وصارت ارتعاشات خفية تسري تحت مسام جلدي عندما يتكرر النداء.. "جدي... جدي..".

*****

الخروج عن الصمت

(١)

تزداد أكوام الأوراق أمامي.. تنحسر الأحداث التي أحاول جاهدًا استدعاءها في حقبة بسيطة. ماذا أكتب؟ ماذا أرسم؟ تيار جارف من الكلمات الهائمة في أم رأسي.

هل أبدأ برسم حديقة فارغة، وأشجار صفراء ذابلة؟ ها هو القلم الصامت يتململ.. سيبوح أخيراَ أم سيجرح جدار القلب بنصل الكلمات؟ هل ستتعرى وأخجل من وضعها على الأوراق؟ ولكن قلمي لا يجيد المراوغة، ولا فرشاتي تستطيع تلوين الحقيقة.. لماذا لم أتحدث ساعتها!؟

ألجمني الأدب عندما جلست أمامه أحدثه عنها، فأسكتني.. كان يمور بانفعالات؛ انقبضت ملامحه، وراح يتمتم ببعض الكلمات لم أفهم منها شيئًا. تتظاهر أمي بحياكة بعض الملابس، ولكنها تتابعنا جيدًا وتخشى إن تحدثت أن ينهرها ويأمرها بالصمت.

اعتدل في جلسته، وركز بصره ناحيتي، ثم قال: "لا تظن أني جلادك، وأنت الضحية.. بميزان العقل والحكمة أحدثك".. ثم مد يده، وربت على كتفي.. لم أستشعر منه أي رقة أو عطف، ثم ساد الصمت برهة، وكأنني أجلس على فوهة بركان. يسيطر الألم على أمي، تمسح بكفها جبيني المعروق، وتقول: "شفاك الله يا ولدي من هذا الداء.. قلبي يؤلمني عليك"

تعالى صوته مرة أخرى:

ـ "أنت لن تتزوجها فحسب، وإنما ستختار عائلة كاملة.. العمر أمامك طويل، والحدائق مليئة بالأزهار". ارتفع صوت أمي بالبكاء، ونهض أبي من مقعده، وجلستُ صامتًا، تأبى الدموع المتحجرة أن تلين وتهبط.

(٢)

خرجتُ مسرعًا من البيت بعد صراخه المتواصل.. أغلقت الباب خلفي بعنف شديد.. سرت بين المارة في طريق بلا نهاية. لم أعتد حياة التسكع في الطرقات. ما أصعب أن تسير على غير هدى! الأفكار متزاحمة في أم رأسي، أرى الأشياء بصعوبة بالغة بعدما كسرتُ نظارتي الطبية، عبارات التهديد والوعيد أحدث بها نفسي كثيرًا.. أعيدها حتى يصيبني الملل من تكرارها.

"عندما تتعلم كيف تحافظ على أشيائك من التلف، سأشتري لك نظارة أخرى"

"أنت مهمل... أنت قلق دائمًا.. سيء التصرف.."

"لماذا لم أنجب فتاة!؟ كانت ستصبح أفضل منك!"

حفظت تلك العبارات عن ظهر قلب، تركت قدمي تأخذانني إلى حيث تريد، لم أجد فيك يا أبي ما أحتمي به. أعود لأتذكر جلبة الحوار الدائر بيني وبينك.. أيقظت أخي الأصغر، تركتني مسرعًا، وهرولت ناحيته، هدهدته حتى نام، أشرت بيديك ناحية الباب أي "اخرج لأنك أيقظته".

لا تنس يا أبي أننا أنا وأخي قطع متناثرة منك، وسكنا نفس الرحم تسعة أشهر كاملة، وأنه يشبهني ويشبهك كثيرًا.

عيناي لم تعودا تبصران ماهية الدرب. رأيتُ قطة كبيرة تموء، وتبحث في صندوق القمامة، لتطعم بالفتات صغارها، تخاف عليهم ألم الجوع، وماذا لو خافت عليهم أكثر؟

تأكلهم!!؟

ما هذه الحكمة العجيبة!؟

دب القنوط مجددًا.. السأم والملل والضيق ثعابين تفوح داخل ثنايا جسدي المتعب، تنفث سمًا ناقعًا بين مسامات جلدي.. عبرتُ البنايات، وأصبحت أسير في

طرق زراعية ملتوية، ومنها إلى شاطئ النيل، أود أن أغرقه بسيل هادر من الأسئلة، وماذا لو أغرقني هو؟

تأملت نقاء الجو، وخضرة الأشجار، وزهور الطبيعة. وأعود لأنظر ذاتي من بعيد.. أنا هذا الشخص القابع تحت وطأة هذا الشعور المقيت. الوقت قبيل الغروب، والشمس تعكس صورتها الذهبية على صفحات أمواج البحر المتلاطمة. داعبته وظلت في الأفول حتى الذوبان التام. هذا الشاطئ سيشهد أول حادث للانتحار. كل أدوات التفكير أعلنت تعطلها المفاجئ. خلعت حذائي وتركته كدليل بأنني هنا تحت صفحات الأمواج، أروي حكاية قد شارفت على الانتهاء. وقفت أستحضر صورتك يا أبي بعدما تفقدني للأبد، هل ستفر دمعة رغمًا عنك؟ هل ستصدق أنني بعض منك؟ حتى لو فعلها وبكى فلن أراه يبكيني.

عدت إلى صوابي، وقررت أن أمضي مستسلمًا لقوة لا أعرفها.. عدت لأرى لهفتك علي، ولو لمرة واحدة.

*****

(٣)

اقتربتُ من البيت في ساعة متأخرة من هذا الليل غير القابل للذوبان في ضوء الشمس المبهر. الأشخاص أصبحوا أشباحًا لضعف بصري الشديد. جلبة حوار يمزق هدأة الليل. ركزت بصري قدر المستطاع لأبصر ماهية الأحداث، رأيت أبي بعد معاناة يمسك بتلابيب رجل آخر.. ضيقت عيناي أكثر.. هذا هو جارنا، وممسك بشيء في يده يلوح به، ولا أعرف ما هو. انطلقت أعدو ناحيتهما، وحين وقفت أمام جارنا شعرتُ بثقل شديد هوى على أم رأسي. ارتميت على الأرض، تحسست آثار الدماء المنهمرة، أبي لازال يصرخ، ويستنجد بمن حولنا.. اقترب مني، والتصق بي أكثر مما ينبغي.. تلطخت ثيابه، مسح بكفه الدماء مرات ومرات، رأيت دموعه لأول مرة، خف توتري، ونمت في أحضانه؛ فمنذ سنين لم تنغلق رموشي وهو يداعب رأسي، حتى لو كانت تنزف دمًا لأجله.

مدينة العذارى

في القطار أسلمت نفسي للتأمل.. صور تتلاحق أمام عيني، هيأت لنفسي معزوفة الحب الصامت. "سأسافر لأكمل دراستي" شهقت أمي من شدة الفرح، وتهللت أسارير أبي. بعثرت اللحية وجهي الطفولي، أسافر إلى العاصمة بوجه فتى عاشق، عابث، غير مدرك ما في الحياة من دهاليز وأسرار. الليل طويل، وفيه متسع لملايين من دموع المحبين.. الليل طويل تحكي فيه شهرزاد عن الفتى الريفي الذي لا يعرف كيف يتجول في العاصمة، والذي يخيفه منظر الشوارع والميادين والسيارات الرائحة والغادية.. هنا العاصمة عاصمة الحواري والأزقة والدهاليز المعتمة.. عاصمة الحرافيش وأصحاب المقام الرفيع، طرق كثيرة ملتوية وأخرى مستقيمة.

في قريتنا شارع وحيد يقسمها إلى نصفين، وعلى جانبيه ينمو الزرع والأشجار. الشباب المتألق في ملابس راقية، وفتيات يتمايلن في خلاعة، وفتيات مختمرات ومنتقبات، وأولاد الذوات.

أبحث عن سكن..

كنتُ الفتى الحالم، لا أجيد التعامل مع السماسرة، وخلق الوقائع الكاذبة، ومحاولات مستميتة للإقناع، والرابح هو من يستطيع خداع الآخر، و"تعيش وتأخذ غيرها". عالم غريب مليء بالمتناقضات، خارج المحطة تنتظرني العاصمة برائحة الخوف من المجهول.

شعرتُ بالوحدة، وفي يدي حقيبتي، وسرتُ في طريق موحش كئيب. حدائق عامة، ومتنزهات تظل مستيقظة حتى الصباح، يجلس الشاب بجانب الفتاة، يبوح ويتململ في جلسته، ويسبل عينيه، ويمسك بأناملها، يجري وراءها، وتلهث أمامه، في مسرحية هزلية لم أشاهدها على الطبيعة من قبل.

تذكرت عندما حل الليل، وغطى بسواده القاتم أرجاء القرية، قالت لي أمي:

"رافق بنت عمك إلى دارها كي لا تتعرض لأي مكروه وهي تسير وحدها في الظلمة".. وكانت المسافة بين بيتنا وبيت عمي لا تتعدى بضعة أمتار. سرت أمامها ببضع خطوات، وسارت خلفي تطيل النظر إلى الأرض متشحة بالسواد.. لم يند عنها أي صوت أو حديث حتى وصلنا. نظرت إلى الأرض أيضًا، وقالت في صوت يكسوه الحياء:

- "تفضل لتسلم على أبي، وتجلس معه قليلًا"

- "شكرًا.. الوقت متأخر" ثم هممت بالانصراف.

وقعتُ في شبكة الحب العنكبوتية.. صوت أمي ينادي من أعلى: "حاسب يا ولدي من بنات مصر".. لم أستطع يا أمي.. كانت كالفراشة حين يداعبها النسيم، فترفرف بأجنحتها على الزهور، لتضفي عليهما رونقًا وجمالًا.

يدك ترتعد، وأسفل عينيك ينم عن حالتك؛ ففي الليل تمارس طقوس الحب في معبدك المقدس.

قال زميلي:

- "اخلع عباءة القديس.. هذه البنت ماكرة، وتجالس غيرك الكثير"

- "لا تبذل حبًا أكثر لكي لا تنزف دمًا أغزر"

صوت أمي يقتحم مهانة صمتي: "لا تنس الأذكار التي لقنتك إياها!"

عذرًا يا أمي لم أعد أستطيع...

كان العالم يبدأ من حجرتي الصغيرة في بيتنا، وينتهي عند أطراف القرية حيث بيت جدي.. خضعتُ دون أن أدري إلى قوانين الذوبان والانصهار في أرجاء العاصمة.

كان اللقاء الأخير عاصفًا بعد انتهاء العام الدراسي.. كانت منهمكة في الحديث مع إحدى صديقاتها، اقتربت منها، وقدمتُ لها بعض الزهور، بهتت ابتسامتها،

وأشاحت بوجهها بعيدًا عني.. شعرتُ بالحرج الشديد، ألقيت الزهور من طول ذراعي، وكأن السماء انطبقت على الأرض.

ـ "من تكونين أنت لتخدعيني!؟"

نظرت إلي باحتقار واضح المعالم، وكأنها كورت بعض الحمم البركانية، وألقتها في وجهي.

خرجت منها الكلمات كالسهام الدامية، سيل جارف من الكلمات. فقدتُ القدرة على الفهم، منعت الدموع أن تتجمع، على الأقل ليس الآن! تماسكتُ، ولكنني لم أنبس ببنت شفة من هول المفاجأة. كنت أعرف أن الكلمات لا تقتل الآن، وإنما تقتل وتمزق لاحقًا.. عند تذكرها.

انهار معبدي المقدس..

ارتميت على الفراش، عنَّفت نفسي كثيراَ، ثم جاء صوت الراوي قادمًا من بعيد بعدما ضاقت الحجرة بمن فيها.

*****

"في ظلمة الليل البهيم، يأوي سكان المدينة إلى منازلهم، يسكن الرجال في نصف المدينة والنساء في النصف الآخر.. هنا في مدينتنا لا أصوات ولا ثرثرة، لا تسمع فيها أي شيء حتى الهمس، لغة الكلام تتعطل. يدنو القمر ليلًا.. تتلألأ الشوارع بالضوء الأبيض الشفاف.. ينطلق الرجال والنساء إلى مخادعهم.. هنا لا تتلاقى الأجساد نهائيًا.. النوافذ مكسوة بوشاح رقيق وردي اللون، يتطاير مع هبات النسيم، ولا يبتل بفعل المطر.. السماء تمطر ماءَ له بريق الماس ورائحة الورد.. يجري النهر في وسط المدينة ويقسمها إلى نصفين، تتلاحق أمواجه وتداعب بعضها بعضًا..رمال النهر من ذهب شديد اللمعان، وبه الماء أزرق شديد الزرقة.

يجلس الرجال يستمعون إلى ألحان الطبيعة الساحرة، يكتبون عن من يحبون من النساء في الجهة المقابلة. تُحلِّق النساء في سماوات بعيدة، وتشعر بكامل أنوثتها

حين تقرأ ما يكتبه الرجال دون أن ترى الكاتب أو تسمع صوته. هنا في مدينتنا لا توجد أقنعة مزيفة أو أغطية مهترئة تستر هنات النفس والروح، كل شيء مكشوف وواضح.. حين يسير الرجل ترى ظاهره وباطنه، ترى دفقات قلبه، وحركة شرايينه وأوردته، وتسمع نبضاته العاشقة. في مدينتنا لا يستطيع أحد أن يخفي حبه، يتحدث القلب ويخبر بكل صراحة عن ما فيه من كبت، ترى وتسمع أنين النبضات الخافت، وتسمع اسم المحب واسم محبوبته بكل وضوح؛ فحين يحب الرجل يبكي طويلًا وتهطل دموعه، تسقط على الأرض، وتُشكِّل قلوبًا وسهامًا نافذة، ووجهًا بدون ملامح، وأحيانًا أخرى تصنع طرقًا متعرجة طويلة تقطع منتصف المدينة لتصل إلى محبوبته.

هنا في مدينتنا لا سُلطة ولا قهر ولا قيود؛ كل فرد يسير في منظومة متكاملة الأركان. تسير الوحوش مطأطئة رؤوسها، تغرد الطيور مع سيرها في جماعات لا تشعر بالخوف؛ فليس هناك قنص أو ذبح. الأرض كالفضة المذابة.. الشمس تعطي نورًا دون وهج. تلاشت الأزمان والأسماء والصفات".

صمت الراوي عن الكلام المباح.. صاحت الديكة.. أشرقت الشمس في الحجرة وشعرتُ بسخونتها. رفعتُ عيني بتثاقل ومازلت أحتضن الوسادة. رأيتُ السماء رمادية، وإذا أمطرت تمطر سأمًا وضيقًا. تحولت الأرض إلى طرق وعرة. الوحوش في الغابات، سلطة وقيود وقهر، مات الحب ولم يقم له شاهد، مات الحب من طول الصمت، تلاقت الأجساد، وانتشرت رائحة العهر انتشار النار في الهشيم. لم أعد أسمع أسماء العاشقين والمعشوقين. أعددتُ حقيبتي، ورجعت إلى القرية؛ أحاول أن أتعلم الدرس قبل أن أغادرها. جلست لأنعى حبًا بدأ ضبابيًا، وانتهى إلى التلاشي.

*****

حياة أخرى

الآن في ظلمة الليل أعاند آثار النوم القادم والمتسلل خلسة إلى الجفون، الآن وبعد انقضاء الزوابع والنوات، وذهاب أطفالي للنوم، أستطيع كتابة كل ما هو معلق بروحي. أمسكت بالورقة والقلم، وحاولت جاهدًا استحضار الصور والمشاهد، وتحديد ملامح الشخصيات.

جاءت صرخة زوجتي لتمزق السكون، وتتحول الأحداث إلى أشلاء تتطاير في سقف الغرفة. ذهبت إليها مسرعًا، كانت صرخة استجداء واضحة المعالم تنادي باسمي بحروف متقطعة. أضأتُ الأنوار، بسملت، وتمتمت ببعض الآيات والأدعية، أحضرت لها كوباً من الماء.. رشفتْ منه عدة رشفات متتالية سريعة، كأن طعم الحلم ما زال عالقًا في حلقها. اتسعت أحداقها لدرجة أخافتني، كأنها لازالت داخل الحلم.. أريد أن أقبض على وعيها المتبقي، وأسترد عقلها التائه.. رفعتُ صوتي قليلًا، ثم قلت:

ـ "ماذا حدث؟ سيكون خيراً بإذن الله"

ـ "أمي ستفارق الحياة!"

ـ "كفاكِ أوهامًا!"

ـ "كانت تجري لاهثة في غابة مظلمة يطاردها الوحوش، ألسنة ملتهبة تجري خلفها أيضًا، الأشواك أدمت قدمها، الدم يسيل بغزارة، جسد أمي مسجى على الأرض بملابس بيضاء.. رائحة الموت تنتشر في كل مكان.. يحملها الأهل إلى مثواها الأخير.. الأرض طينية مبتلة، والأقدام تغوص بداخلها.. علت الحناجر بالذكر والدعاء.. السماء سوداء قاتمة.. هبوب الرياح، ولسعات البرد تنخر العظام.. تنام أمي بملابس بيضاء وبدون غطاء، تنام في سكون وسلام على أعناق الرجال، وجهها يبتسم، وأنا ألهث خلفها وحدي خائفة فزعة تائهة في وحشة لامتناهية!"

اقتربت منها، وضممتها إلى صدري بقوة، دفنت وجهها بين كفيها، وأطلقت صرخة أخرى مصحوبة بأنين خافت.

- "أضغاث أحلام.. استعيذي بالله"

- "أنت تعلم أن كل أحلامي تتحقق.. أتذكر يوم وفاة عمي؟ حكيت لك كل التفاصيل قبل حدوث الوفاة بأسبوع كامل"

- "نعم، ولكن لا يعلم الغيب إلا الله". مسحت برفق على شعرها ووجهها، وأعطيتها كوب الماء مرة أخرى.

- "أريد أن أتصل بأمي الآن"

- "الوقت متأخر، ويمكن أن تفزع.. سنتصل بها في الصباح"

- "الآن!"

قامت في فزع، وأمسكت بالهاتف. ردت أمها بصوت متحشرج من النوم.. ظلت تسألها.. "ماذا حدث؟ وأين زوجك؟ وهل أنتم جميعًا بخير؟"، وعن سبب هذا الاتصال في تلك الساعة المتأخرة من الليل، فأجابت إجابات مقتضبة، وأنهت المكالمة، وعادت إلى الغرفة في ذعر، ترتجف، وتترقب تشخص ببصرها ناحية النافذة، ثم تشد بقوة خصلات شعرها المتهدل، تتحرك حركات آلية، كأنها تجلس أعلى فوهة بركان.

- "عليكِ بالوضوء، وستجدين خيراَ"

- "سنذهب في الصباح عند بيت أبي"

- "إن شاء الله"

وجاء الصباح بعد طول معاناة وذهبنا، ارتمت بأحضانها بفرح طفولي كأنها عادت بالعمر سنوات.

- "ما السر وراء مكالمة الأمس؟"

- "لا شيء سوى أنني كنت أريد أن أهاتفك وأطمئن عليك"

ابتسمت، ثم قالت:

ـ "عدتِ إلى كذب الطفولة"

ـ "صدقيني يا أمي.. لا شيء"

*****

الهاتف يدق.. ترفع زوجتي السماعة بتكاسل.. شهقتْ بصوت مسموع أوقفت به عضلة قلبي.

ـ "ماذا قلت!؟"

ـ "تكذب أم تتحدث بصراحة!؟"

نظرتُ نحوها في شبه ذهول. وضعت سماعة الهاتف، وجاءت بخطوات واثقة.

ـ "من المتحدث؟"

قالت مبتسمة:

ـ "أخي الأكبر يقول بأن أمي ستذهب لزيارة بيت الله الحرام، وأوصتني أن أدعو لها بأن تموت نفسها الخبيثة، وتأتي من هناك ليس عليها ذنب".

*****

ليلى

تتكرر النداءات.. حروف اسمي متقطعة تتمدد عبر الأميال الفاصلة بيني وبينه، أحاول جاهدةً تجاهلها.. دقات القلب تخفق بشدة، يتقاطر العرق من جبيني.. أستيقظ من غفوتي لأجده ينام بجواري، هذا العبء الذي أمكث تحته، أنظر إلى كفي كأني أسمعه حين كان يقول "هذا الكف سيزينه خاتمي ويصبح لونه برتقاليًا ما قبل ليلة العرس، والذي ستظل تذكره جميع عائلات القرية".

أعيد النظر في زوجي، أتمتم "ليس هو"، يكفهر وجهي، وتتقلص أعصابي، وأفضل العودة إلى النوم. رائحة البيت العتيق تتسلل إلى أنفي، هذا البيت المفعم بالأسرار في كل ركن من أركانه.. أطياف ذكريات لم تتلاشَ بفعل الزمن. كنا عائلة واحدة؛ نأكل معًا، ونشرب معًا، لا نفترق إلا عند النوم. يظل البشر الحاقد جحيمًا يترصد لأبوابنا المغلقة، يطوف بأسواره العالية في محاولات مستميتة للإيقاع بيننا. كنت أظن أنهم سيظلون يتحدثون عنا طويلًا بلا جدوى، ولم يصدق حدسي.

جاء اليوم الذي اختلف فيه أبي وعمي على قطعة من الأرض، ولكن هذا لم يحدث إلا بعد أن فارقت جدتي الحياة؛ لأنها كانت بمثابة الحصن الحصين، عندما تأمر ينصاع لها أبي وعمي في هدوء تام. أصبحت الدار كتلة من لهب؛ أصوات وصياح، وتبادل للاتهامات بين أبي وعمي.. تغير الحال تمامًا، وبعد صراع مرير، ودخول أكثر من طرف في محاولة لإيجاد حل، اتفق كل منهما على الانفصال.

هبط (أحمد) درج البيت يتمسح بحوائطه كأنه يودعها، لم يستطع مقاومة دموعه، ظللنا ننظر إليه هو وإخوته في حزن شديد. ودعت أمي (أم أحمد) بسيل هادر من الدموع، ورددت عبارتها الشهيرة: "العشرة لا تهون إلا على ابن الحرام". ظللتُ ليلتها أتقلب من سرير إلى سرير أغمضِ عيني لأهرب من ألم فراقك دون جدوى.. لم أستطع الهرب من رسائلك التي كنت ترسلها مع أختك الكبرى، لأنك

كنت تخاف مواجهتي بما يدور في خاطرك، ولم أستطع أن أنسى صورك القابعة في الأدراج؛ ما زلت أحتفظ بها إلى الآن.. سافرت بها إلى هنا.

أنسل إلى غرفتي لأنام أنا وجرحي وآهاتي الملتاعة.. انقطعت الصلة تمامًا بين أبي وعمي، وأصبحنا لا نرى منهم أحدًا على الإطلاق، رغم أنهم يقطنون نفس قريتنا.

لا أعلم من المذنب، ولكنني أعلم أننا هبطنا على تلك الأرض المكدسة بالأحقاد والضغائن والصراعات التي لا تنتهي.

احتجبت الرؤية عن عيني، وأحسست بدوار شديد حين كان المنزل ممتلئًا عن آخره تنطلق الزغاريد والضحكات والمباركات، صعدت إلي الفتيات تلقي كل منهن كلمات التهنئة.. ألقيت بنفسي على أقرب مقعد، طلبت منهن أن يتركوني قليلًا لأستريح. آهات مكتومة وصوت يتردد صداه في أعماقي.. قد تعلمتُ الحب على يديه، انطلقت إلى حيث وضعت هديته الأخيرة؛ كانت سلسلة على شكل قلب له بريق الماس.. عبثت به قليلًا كأني أستجدي منه نظرة عطف وشفقة، ثم أعدته مكانه.

رسائله ونداءات الأرواح.. نعم كان يناديني، وكنت أسمعه جيدًا. يظل الحائل المنيع تلك الورقة المقيتة، والتي تحمل صورتي وتوقيعي بحوزة هذا الشخص النائم. ضاعت ملامح وجهي حين قرب موعد الزواج، شعرت بالقيء والغثيان.. رقدت طويلًا، الوجوه من حولي جامدة كالحديد.

استيقظ النائم، وأمرني أن أرتب الحقائب من أجل العودة لنأخذ الإجازة السنوية. أكدت أختي في رسالتها الأخيرة بأنها تُعِد لي مفاجأة عند عودتي من السفر.. لم أهتم بتلك الرسالة طويلًا؛ لأن كل شيء جميل أصبح في طي النسيان.

نحن الآن على مشارف قريتنا.. أبصرتُ من بعيد شقوق الدار والعتبة التي احتضنت اللقاء الأخير.. حين توقفت السيارة، ووطأت قدمي أرض قرية ماتت فيها أحلامي، واقتُلِعت فيها جذوري.

حاولت أن أتماسك، وألا تنفلت مني رغمًا عني أي كلمة توحي بما يمور بداخلي.

وصلنا إلى الدار، ثم رأيت المفاجأة رأي العين.. رأيت عمي يجلس بجوار أبي في سعادة غامرة، وكما حدثني قلبي، كان (أحمد) أول من حمل الحقائب من السيارة، وكان كسابق عهده نظراته حانية.

وصوته الرخيم كان يمور بانفعالات يود أن يشهق من شدة الفرح، ولكن الحياء منعه، فمد يده مصافحًا. يداه ترتعشان بشدة يطيل النظر إلى الأرض.

لم ينكرني..

ولم يعاتبني..

ولم أفتقد ذلك الإحساس بوجوده..

وإنما جاء صوته مخنوقًا بطوق من الذكريات.. "(ليلى)".

*****

جراحة

أيها الشخص الكامن في أعماقي مازلت تتوارى في أكداس الظلمة، أما لنا من لقاء في ساحة النزال؟ أستل سيفي، وأصرعك ولو لمرة واحدة، أقتنص نفسي من بين نواجذك. لم تعد يدي مرتعشة، ولن يتقاطر عرق الخجل من جبيني. تمور بداخلي لذة وحشية، وألم يخترق ضلوعي.

نبهت السائق بتهدئة السرعة قليلًا، ولكنه فزع قائلًا:

ـ "إنهم يؤكدون بخطورة الحالة، ولابد من وصول سيادتك لإجراء الجراحة"

تذكرت عندما جاء العيد، وجرى العرف أن نتعلم الذبح عندما تشتد سواعدنا، ونبلغ مبلغ الرجال. وجاء دوري، أمسكت بالسكين بيد مرتعشة، وجسد ينتفض من شدة الرعب، وعندما لم أستطع لكزني أبي ولطمني لطمة قوية كادت أن تجهز علي. كوّرت يدي الصغيرة على عيني، وأخفيت دموعي عن أقراني، ومضيت أبكي وأنتحب.

كنتُ جبانًا حتى في أن أتقدم خطوة واحدة لأفوز بها. كانت تقف ساعات تنتظر مني أي بادرة أو إيماءة، وعندما تطول وقفتها ويشعر أهل الدار بها ترسل نظراتها النارية وتعود أدراجها. كل شيء يدور حولي، وأنا أقف بسلبية ذليلة مقيتة، لم يُطلب مني سوى ابتسامة من شفاه متهدلة أو نظرة، حتى ولو كانت من أعين ذابلة مستكينة.

اشترى جدائلها الذهبية وهمساتها العاشقة وخفة ظلها شاب من أثرياء الحي.. تسلق أسوارها المنيعة غير هياب. خلفت في نفسي جرحًا غائرًا، بعدها تأكدت أنني جبان.. ردَّدتها كثيراَ حتى أصبحت لدي يقينًا.

زادت اهتماماتي بالدراسة كنوع من التعويض. كثيراَ ما تحاشيت الشجار مع أقراني؛ لأنني كنت أعلم أنني ضعيف.. كنت أرضى بالذل و المهانة وصخبهم في

وجهي كثيراَ، وإذا قررت أن أتماسك تهاويت من أول ضربة. شعرت بعد حصولي علي أعلى الدرجات أنني لن أستطع أن أكمل، ولكن القدر كان رحيماً بي طوال الوقت. لم أكن أعتقد في يوم من الأيام أن أرتدي قفازًا وأمسك مشرطًا، وأغوص به في دهاليز الأجساد البشرية.

كم تمردت أصابعي! وكم تجمدت أطرافي! ولكن شيئًا فشيئًا أصبح الأمر معتادًا. ليس من العجب أن تعمل شيئًا مخالفًا لطبيعتك، ولكن الأعجب أن تبرع فيه.

فُتِح باب السيارة، وهممت بالنزول، توجهت إلى غرفة العمليات، كانت هي المريضة ذات الجدائل الذهبية. وقفتُ شارد الذهن لفترة وهى تتأوه وتتلوى من شدة الألم؛ فالحالة جد خطيرة. تلك اللحظة تجمعت فيها كل لحظات عمري المنقضي. الآن علي أن أذبح ولكن من؟؟ توارى عن وجهها بعض من نضرته، وترهل جسدها الممشوق نوعًا ما، ولكن مهما ذبلت تظل تنشر عبقها وعبيرها. ماذا لو فارقت الحياة أثناء الجراحة؟ سأنشب المشرط برقبتي ونموت سويًا.. لا.. لا تفكر في هذا الآن. يتناهى إلى سمعي أصوات المساعدين بضرورة التدخل الآن. أسرعت بالتقاط المشرط بين أناملي وبدأتُ بإجراء الجراحة، ولكن مع ارتداء غطاء الوجه، والذي يخفي الكثير من التعبيرات والنظرات والدموع المنهمرة عليها.

*****

ليلة هروب

أجلس في غرفتي.. أنظر إلى الحقيبة المفتوحة أمامي.. ستكون ممتلئة بعد قليل. يدخل أبي غاضباً كعادته ينبهني بضرورة الانتهاء من إعداد الحقائب.. أقف على أطراف أصابعي، وأدخل إلى الحجرة المجاورة لأحضر بعض الأوراق.. لدي رغبة مدفونة بأحشائي تتلوى وتتمدد، تكاد تخترق ضلوعي، وتخرج إلى حيز الوجود رغمًا عني. لم أعد أستطيع السيطرة عليها.. أريد أن أكتب له رسالة أخيرة، وأشعر ببعض الراحة.

ـ راحة المريض حين يتحدث عن ألمه وشكواه أمام الطبيب.

ـ راحة التائب المقر بكل ذنوبه وخطاياه.

ـ راحة العاشق حين يبوح.

لم يكن لدي الاختيار، ولكنني جبلت على السير في الطرق الوعرة داخل أروقة الظلمة والمجهول. كم كنت أتمنى أن أهرب ببدني الضئيل من تلك الوحشة اللامتناهية! أحمل وجه حية رقطاء ناعم الملمس تنتفخ أوداجه بالسم الناقع.. نعم أنا كذلك. كرهتُ تلك الحقيبة من كثرة الترحال، فيا ثيابي المتهاوية في حقيبتي قد انتابك ألم ممض من طول السفر! يا سأم أعوامي الماضية، يا أمي الراحلة عنا منذ كنتِ طفلة، يا أبي....

يستمر إلحاح الرغبة في البوح والاعتراف، ثم بعدها لك ما تشاء.

ـ لك أن تجرحني بلسانك.

ـ لك أن تبحث عني، حتى تنتقم.

ـ لك أن تقول، وأن تفعل ما يحلو لك، ولكنني أطلقت هذا العصفور، وحررته من غيابات سجنه. تصدر مني آهات ملتاعة حزينة، وأنا أمسك بالقلم بين أناملي..

وتمنيتُ أن تسامحني، ولكن كيف سأعلم إذا سامحتني؟ وأنا مستعدة لأن أرحل الآن بعد وقوع الفريسة.. أتعلم من كانت الفريسة؟ كنتَ أنت...

كنت أرى السعادة ترتسم بين عينيك وتضحك بملء فيك، صوتك العذب الذي امتزج فيه الحزم مع الثقة وكثير من الحب، أناقتك غير المسبوقة، حبك للحياة. انتقلتُ معك إلى عالم جديد لم أدخله من قبل، عشت فرحًا لم أعرفه من قبل ولم أتخيل وجوده في تلك الحياة المقيتة؛ أن أنسى نفسي تمامًا، أن أشعر بالدوار والرعشة، خفقان القلب عند اللقاء بالفرحة، وخفقانه مرة أخرى للوداع، ولكنني كنت أعلم جيدًا أن ذلك لن يطول، وسنفعل أنا وأبي كما فعلنا مع من سبقوك في خطبتي؛ فكنتُ معك أتخذ مجلسي فوق هامات السحب، وإذا خلوت بنفسي أجد أنني مازلت قابعة بين الحفر. أعلم أنك كنت تلتصق بي كطفل متعب. كم رددنا من أغنيات! وكم تبادلنا من نظرات! وكم داعبت بأناملك خاتم خطبتنا! الآن سأعترف، الآن ستتعرى الحقيقة، وتتجرد من رداء الخفاء.

كان الفقر ينهشنا أنا وأبي بمخالبه السامة.. لك أن تصف لي مشاعرك إذا رأيت والدك يُصفَع على وجهه من صاحب البيت الذي نسكن فيه؛ لأننا لم ندفع الإيجار.. ما أصعبها من لحظات! لك أن تصف لي مجددًا إذا ما مكثت أيامًا تبحث عن شيء صالح للاستخدام الآدمي فلم تجد. هكذا ننتقل من مكان لآخر، حتى بلغتُ مبلغ النساء، وجاء أحد الرجال يريد زواجي، وبعد ليلة الخطبة أخذنا ما جاء به من مشغولات ذهبية ورحلنا من تلك البلد.. تكرر فعل هذا مرات، ومعك أنت الآن. أهبط الدرج بحقيبتي، ترى في أي غرفة سأفتحها؟ وعلى أي مشجب سأعيد ترتيبها؟؟

هل سأرتدي أجمل زينة كما يقول لي أبي؟؟ وهل سيأتي ضحية جديدة، ونأخذ ما يأتي به ونعيد الهرب مرة أخرى؟؟

*****

مسافر على جناح الأحلام

بدت وكأن عليها أكداس الهم المتراكم، تخرج من عينيها تلك النظرات الحائرة. خلت المحطة من المسافرين، تضع يدها في جيب معطفها، يداعب البرد أنفها على طريقته الخاصة. تنظر إلى الرصيف في الجهة المقابلة، صوت التلفاز يأتي من المقهى المجاور للمحطة. تعجبتْ كثيرًا من وجودها في مثل هذه الساعة المتأخرة من ليل الشتاء القارس؛ القرية بأكملها تغط في نوم عميق، ومن المعروف والسائد أن الفتيات في مثل عمرها لا يسافرن بمفردهن نهارًا، فكيف بتلك التي ستسافر ليلًا!؟ حدثت نفسي "لعلها تنتظر أحدًا ليرافقها في رحلتها". أعلم بأن المرأة لغز من ألغاز الطبيعة، والتي تظل عالقة في أذهاننا ما حيينا. مضت فترة ليست بالقصيرة، ولم يأت لها أحد.

كم أتوق لخوض تلك التجربة! ولكنني اعتدت أن أضع نفسي في النظام الآمن؛ أتخيل جميع العواقب، وكل الاحتمالات السيئة. معطف أسود وحقيبة جلدية ووجه أبيض تهب منه نسمات الريف. لماذا أفضل دائمًا أن يكون الآخر غامضًا أحاول إدراكه؟ لا أعرف ما هي الإثارة في ذلك.. تخميناتي أنها هاربة من أهلها، وأنها من الفتيات الثائرات على العادات والتقاليد.

نظرت إليها، فوجدتها تحمل حقيبتها، وتصعد الدرج الواصل بين الرصيفين. وقفت بجانبي، وهي تلهث من ثقل الحقيبة، أدهشتني ملامحها، فلم أستطع تحديد عمرها. بدأت حديثها قائلة:

ـ "أعتقد أن القطار سيتأخر كثيرًا"

انتابني شعور بالسعادة؛ لأنها وفرت علي مجهودًا كبيرًا، ومعاناة حقيقية في التفكير في بداية الحديث، وأول الكلام.

ـ "أكيد.. سيتأخر كعادته.. هل ستسافرين إلى العاصمة؟"

ـ "نعم"

ـ "رحلة عمل أم شيء آخر؟"

ـ "دع عنك كل التفاصيل المرهقة"

ـ "يمكنني أن أعرف اسمك ومن أي العائلات؟"

ـ "أسوأ ما نحمله يا سيدي الأسماء"

شعرت بالحرج الشديد، فقررت أن ألتزم الصمت، ولكنها فاجأتني قائلة:

ـ "أنا أعرفك جيدًا، ولكنك لا تعرفني"

ـ "وهل هذا عدل؟"

بصوت أشبه بالهمس:

ـ "بل كل العدل"

ـ "من أنت؟ هل أنت حقيقة؟"

ـ "وما هي الحقيقة من وجهة نظرك؟ أنا أعتقد أن اليقين أساسه الشك، ولكننا ظللنا نردد الشك حتى أصبح لدينا يقينًا"

ـ "ألا تكفين عن التراشق بالكلمات؟"

ـ "دع كلًا منا شهيًا بغموضه"

ـ "ليس في استطاعتي مجاراتك في هذه الأحاديث"

أشعلتْ سيجارة، وسحبتْ منها نفسًا عميقًا، مما زاد من حدة توتري واندهاشي.
ـ "سأذهب خارج المحطة، وسأعود إليك مجددًا"

ـ "تفضلي"

ماذا علي أن أفعل حتى أستطيع سبر أغوار تلك الفتاة؟؟ تركيبة عجيبة ومثيرة، تتحدث بمنتهى الثقة، أتوق كثيرًا لفهم منطقها في الحب والحياة، ترعبني فكرة ما بعد انتهاء السفر وذهاب كل منا إلى غايته. تزاحمت الأسئلة في رأسي.. كم رجلًا

عبر بها؟ ماذا تدرس؟ ماذا تعمل؟ ماذا تقرأ حتى تصبح هكذا؟ تريد أن ترد كل شيء لأصله. فيلسوفة أم ترتدي ثوب الفلاسفة؟ ساحرة يمكن أنها تمارس طقوس السحر والشعوذة.

نظرتُ بجواري، فوجدت حقيبتها، ووجدت دفترًا صغيرًا أعلى الحقيبة. فتحته بسرعة، وقرأت فيه:

"الوصول إلى أصل الأشياء غايتي، والتي أبحث عنها دائمًا. أسطر أحاديث نفسي في هذا الدفتر الأسود الصامت، والذي أتركه بمفرده طويلًا في ركن منزو في أركان الحجرة، ثم أعود إليه لأعانقه هذا العناق الدائم وأبوح فيه بكل ما يجول بخاطري؛ فدفتري أقدر الأشياء على الحفاظ على أسراري المعلقة بروحي. ما معنى أن نتزوج، ونحل ضفائرنا المشدودة على كتفي رجل لا يعرف للمرأة سبيلًا سوى أنها أصبحت جزءًا من ممتلكاته!؟ هراء! طالما أننا أحياء فلنحيا بطريقتنا، وإلا فلا قيمة لهذه الحياة. أشعر بأني زهرة مطوقة بطوق من الشوك، أنزف دمًا بغزارة إثر احتكاكه بجلدي الرقيق".

صوت القطار قادم من بعيد، وهي لم تأت بعد. نظرتُ إلى الناحية المقابلة فلم أجدها. حملت حقيبتها وحقيبتي وانتظرتها. أعلم أن القطار لا يستمر طويلًا على هذه المحطة. انتابني شعور بالحيرة. صعدت الدرج الواصل بين الرصيفين، ونظرتُ من أعلى، فوجدتها تقف أمام القطار على القضبان! شعرتُ بأن ملامحها قد تغيرت، صرختُ بأعلى صوتي: "القطار سيتحرك! لماذا تقفين هكذا!!؟".. شعرتُ بصوتي يشق سكون الليل. لازالت تقف بهدوء وتنفث دخان سيجارتها. كررتُ النداء مرات ومرات ولا تجيب. أطلق القطار صفارته معلنًا مغادرته المحطة.. هرولت مسرعًا من على الدرج، نظرت إليها من أسفل العجلات، لم أجد لها أثرًا. انطلقتُ أعدو إلى الأمام والخلف وأعيد النظر، لم أجدها! عبر القطار بكامله وغادر المحطة!

*****

قصة معلقة

انتهت ساعات النهار، وانتهيتُ من العمل اليومي الشاق. ألقيت بنفسي وسط الحشود وجموع المشترين والأكوام المرصوصة من الكتب القديمة والجديدة، أخيراَ وجدت ضالتي أخيراَ! وبعد معاناة استطعت أن أجمع كل ما أريده منذ فترة طويلة. ظلت الرغبة تقاوم دقات الهاتف المستمرة، أجيب بأنني قادم، وأتعلل بأن الطريق مزدحم. يصرخ الحلم وتتماوج العبارة.. "من يكتب لا يموت".. لابد أن أعيش خيالات المؤلفين الكبار ليبزغ خيالي، ويتمدد ويصنع لنفسه مكانًا وسط تلك الأقلام الرصينة.

تشير عقارب الساعة إلى الرابعة عصراَ.. وصلت إلى المنزل، وتعثرت كثيراَ بالدرج من ثقل ما أحمل.. تحسستُ جيوبي فوجدتها شبه خاوية. سرت على أطراف أصابعي عندما وجدت زوجتي قد أصابها الملل من طول الانتظار فنامت. بحثت عن مكان أخفي فيه تلك الحقيبة، فلم أجد، فاكتفيت بوضعها أسفل مكتبي الخشبي. لم أجرؤ على إيقاظها، ولكنني أعددت طعام الغذاء بما أستطيع أن أفعله بمفردي. تقفز القصة إلى ذهني متوسلة أن أكتبها، شعرت بالارتياح حين اكتملت أركانها في مخيلتي.. الآن سأعانق الأوراق عناقًا أبديًا! أمسكت بقلمي، والذي انتفض فور احتوائه بين أناملي.

وضعت عنوان القصة.. "ليل الفراق".. وبدأت أكتب:

"مع سقوط الأمطار تعزف الروح لحن الغربة.. شعر أسود فاحم يتهدل برقة ووداعة على الأكتاف.. رسائل عبر أثير الأشواق وصلت أم لم تصل؟؟ هل استطعت فك شفراتها الروحية؟ وإذا استطعت فلماذا لا ترسل الرد؟ الزمن يدور والأمواج تهدر. ألا يستطيع الزمن أن يرتق ما بالقلب من شروخ؟ هنيئًا لتلك الليلة الليلاء على ما نحن فيه!"

مازلت تتراقص على أنغام البعد بعدما انبعثت مني رائحة الشواء.. نعم كان قلبي يحترق، كأن القدر لوحات فنية مزينة بحوادث، تتساقط أمام عينيك لوحة تلو الأخرى. كنتُ قريبة منك لدرجة لا تتخيلها.. كنت ملاصقة لك، ولكنك لا تشعر إلا بمن تريد أن تشعر بهم. كم ضمني ليل الغرباء! وكم ترقرقت مني دموع ترى لو جمعتها في وعاء فلن تستطيع حمله! دائمًا ما يكبلنا الحياء، ويمنعنا من الحديث؛ تصبح الكلمات عرايا كما ولدتها أفواهنا، وكما تمخضت عنها حناجرنا. ترى لو حدث أننا تقابلنا مرة، وأخبرتك عما يمور بداخلي ماذا ستفعل؟؟ بماذا سترد؟؟

هبطت الطائرة إلى أرض المطار.. انتقلتُ إليك بحكم عملي.. أنهي إجراءات دخولك.. حملت حقائبك، ومعها سنوات عمري الضائعة، جلستُ إلى جواري تنظر إلى الأرض عندما عبث طفلك بجدائلي المتراخية والمشدودة بحذر على ظهري.. لك أن تغار منه الآن".

سمعتُ صوتها يعلو من الغرفة المجاورة.. تتحدث بلهجة حادة، وسمعت أيضًا صوت بعثرة للكتب. جاءت بخطوات متلاحقة، طالعتني بوجه يعاند آثار النوم.

- "ماذا تفعل؟ ولماذا تأخرت؟ وما هذه الكمية الكبيرة من الكتب!؟ ألم أخبرك بأن المنزل لا يوجد به مكان للاحتفاظ بمثل هذه الأشياء!؟"

نظرت إليها مبتسمًا، لأخفف من حدتها وتوترها، فلم تمنحني الفرصة، وأردفت قائلة:

- "ماذا تريد أن تفعل؟"

- "أريد أن أحيا أسودَ على بياض الأوراق"

قالت:

- "تريد أن تقف في مصاف الكتاب، العاشقين، المعشوقين، وأن يصبح لك معجبات"

- "كلا.. ولكنني أكتب لأترك قلبي في كل ورقة"

ـ "قلبك لن يبرح موضعه"

ـ "بالكتابة ندخل عوالم أخرى، ونتخلص من النسبية المقيتة"

ـ "دع عنك كل هذا الآن.. هل يمكنني قراءة ما كتبت؟"

ـ "ولكنني لم أنتهِ بعد!"

أمسكت بالأوراق بعصبية، وبدأت تقرأ.

تغيرت ملامحها، وقالت بلهجة حادة:

ـ "من هي تلك الفتاة التي تكتب عنها؟ ولماذا أسميت القصة بـ(ليل الفراق)؟"

ـ "الشخصية واسم القصة من وحي خيالي و....."

لم تسمع بقية الحديث. أطفأت زر الإنارة بقسوتها المعهودة، لملمت الأوراق بعصبية، شدتني من ساعدي بقوة، تحركت معها (بدون مقاومة)، وانطفأت شمعة الأمل في أن أكمل ما بدأت كتابته.

*****

الجسد

كانت النسمات تداعب شعرها المنسدل، كان لخطواتها وقع رتيب، الليل وقد غطى بسواده بياض بشرتها، تنظر يمينًا ويسارًا لعبور الشارع. كان خاطرها يتأرجح بين رجل الأحلام الوردية، ورجال الليالي القذرة.. بين عشق الروح، وعشق الجسد. لملمت أطراف ثوبها، والذي يُظهِر أكثر ما يخفي.. ضغطت بكلتا يديها على الجزء السفلي من الرداء لمنع الهواء من الدخول، ولكي لا يعبث هو الآخر بهذا اللحم المتيبس.. اختلطت دموعها بكحل عينيها، فبدت قسماتها مخيفة.

في كل ليلة كانت تحلم بصفوف من الفتيات يجلسن أعلى الصخور أمام البحر، ترتدي كل واحدة منهن رداء الزفاف.. كانت السماء من فوقهن صافية، والنجوم تتراقص فرحًا بهن. أطلقت بعض الآهات تباعًا.. كم من الليالي أنفقتها، وذهبت أدراج الرياح! وكم من الأغصان المورقة جفت من شجرة العمر؟ انقبضت ملامح وجهها حين شعرت بأنها تشم رائحة جسدها نتنة. ضغطت بأسنانها على شفتها السفلى حتى أصبح طعم الدم في فمها.. تذكرت كيف بددت حلم الليلة الأولى والذي يراود كل فتاة.

مازالت تذكرها بكل تفاصيلها المرهقة، حين بح صوتها من كثرة الاستجداء، وخارت قواها في الدفاع المستميت عن نفسها، ثم فاحت رائحة ذبحها وانتشرت في أرجاء الغرفة، شعرت بانسلاخها من نفسها وتجردها من ملامحها. حدثت نفسها: "لا يصلح الحب والجيوب خاوية".. أمسكت ببعض النقود.. حركتهم ناحيتها بعنف في محاولة غير مجدية في إسكات ما يختلج بصدرها.. هذا هو العالم الذي تعرفه، لا تجد العزاء في شيء. شعرت بأنها كتلة مفرغة تسبح في آماد موحشة تتكور في حضن الليل العاجز عن حمايتها، ويبقى السؤال المقيت..

"كم ثمنك؟"

أرادت لو ذهبت هي إلى أحد الرجال، وقالت له:

"كم ثمنك؟"

بماذا سيجيب؟

تجيب هي مندفعة: "المرأة وحدها هي التي تدفع الثمن.. شاءت أم أبت"

انطلقت تعدو لعبور الشارع..

صدمتها سيارة مسرعة.. انصهرت مشاعرها المتناقضة مع خبطات جسدها على الأرض.. تقلبت الألوان والصور والمشاهد في مخيلتها.. وارتسمت على محياها بسمة بطعم الفزع. راقبت روحها وهي تغادر جسدها، ثم جرت الدماء باللون الوردي لتصنع أخاديد ونتوءات، وقد كتب على الطريق.. "ليتني عشت كما أريد، وليس كما يراني الناس!".

*****

جنيه فضة

كان اليوم شديد الحرارة. وجدته يعبث بالتراب تحت عجلات السيارة، وبدا وكأنه يبحث عن شيء يفقده، كان لا يظهر منه سوى قدميه، يتمدد بجذعه النحيل أسفل السيارة، ينبش التراب بطريقة أدهشتني، وعندما اقتربت منه أكثر، ونظرت إليه، همَّ بالوقوف، وأخذ ينفض ما علق بثيابه من تراب الشارع، ثم فرك يديه بقوة. لمحت في عينيه نظرات قلقة مترعة بالاستجداء لخوفه الشديد من ردة فعلي تجاهه. طالعني بوجه دامع يمسح أنفه وعينيه بطرف جلبابه القديم.

ـ "هل ضاع منك شيء أسفل السيارة؟"

ـ "كلا!"

ثم ابتعد عني، وجلس على أحد الأحجار على جانب الطريق.

ركبتُ السيارة، ولم تطاوعني نفسي بالانصراف. ذهبت إليه مرة أخرى، وعاودت سؤاله:

ـ "هل ضاع منك شيء؟"

كان مستمراً في البكاء، نظر إليّ بعينين زائغتين، ثم قال بصوت يقاوم الدموع:

ـ "نعم.. جنيه فضة"

قلت له مازحًا:

ـ "فضة أم ورق؟"

وضعتُ يدي في جيبي، وأخرجت له ورقة نقدية فئة الخمسة جنيهات، لم يمد يده ليأخذها، وتراجع خطوة، ثم قال:

ـ "عايز الجنيه بتاعي"

عدت أضع يدي في جيبي، وأخرجت له جنيهًا فضة.. أخذه، ولكنني شعرت أنه فكر كثيراً قبل أن يحتويه، ويضعه في جيبيه. عدت إلى السيارة، أدرت المفتاح، وتحركت قليلًا، فإذا به يعدو خلفي! لمحته من المرآة، أوقفت السيارة، وكنت أنوي بداخلي أن أعنفه.. فتحتُ زجاج السيارة ونظرت إليه بغيظ مكتوم.

ـ "ماذا بك؟"

ضحك حتى لمعت أسنانه البيضاء في ضوء الشمس الساطع، مد لي يده بالجنيه الفضة.

ـ "خلاص يا أستاذ لقيت الجنيه بتاعي تحت عربيتك"

ـ "يابني أنا قلتلك خلاص!"

ـ "لا يا أستاذ.. أمي ستضربني إذا وجدت جنيهًا آخر معي"

بعد إصرار مني، وعناد طفولي منه، وضع الجنيه الفضة على تابلوه السيارة، ثم انطلق يعدو للخلف.

*****

الفهرس

العصفور واليمامة ٧
للحقيقة وجوه كثيرة ١٣
يا ليتني كنت صغيرا! ١٨
الفجر الأسود ٢١
رأتني ولم ترني ٢٤
زهور ذابلة ٢٨
قصر الأفندي ٣١
الأنامل المتمردة ٣٥
انكسار ٣٨
حرمان ٤١
وجه طفولي ٤٤
نداء ٤٨
الخروج عن الصمت ٥٢
مدينة العذارى ٥٥
حياة أخرى ٥٩
ليلى ٦٢
جراحة ٦٥
ليلة هروب ٦٧
مسافر على جناح الأحلام ٦٩
قصة معلقة ٧٢
الجسد ٧٥
جنيه فضة ٧٧
الفهرس ٧٩

التعريف بالكاتب

إسلام محمود عبد الموجود الحادي

ـ **تاريخ الميلاد:** ١٩/٨/١٩٨٦.

ـ **محل الميلاد: مركز المنشأة محافظة سوهاج.**

ـ **المؤهل: بكالوريوس التجارة جامعة سوهاج عام** ٢٠٠٧.

دبلومة الدراسات العليا في الإدارة العامة والحكم المحلي ٢٠١٤.

ـ **المهنة: محاسب بشركة مصر للصرافة فرع سوهاج.**

- **نشرت له قصة (مدينة العذارى) بمجلة الثقافة الجديدة عدد أغسطس** ٢٠١٦.
- **كان من ضمن الفائزين في مسابقة دار ضاد للنشر والتوزيع عن قصة (ليلى) عام** ٢٠١٥.
- **كان من ضمن الفائزين في مسابقة دار ضاد للنشر والتوزيع عن قصة (شتاءات ملتهبة) عام** ٢٠١٦.
- **يشارك بأعماله في صفحات التواصل الاجتماعي في العديد من المجموعات الأدبية وفازت قصته (حصاد الحب) بالمركز الأول في المسابقة التي أجرتها مجموعة مكتبة خمائل الالكترونية.**
- **يشارك بأعماله في الندوات الدورية لاتحاد كتاب فرع جنوب الصعيد بسوهاج.**

ـ **الهاتف:** ٠١٠٠٢٨٣١١٠٩

ـ بريد إلكتروني: **eslam.elhady2011@gmail.com**


دار
الفؤاد
للنشر والتوزيع